نحو عقيدة صحيحة

محمد فتح الله كولن



سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة (٢)

نحو عقيدة صحيحة

رقم الإيداع: ISBN 978-975-315-659-2

رقم النشر

534

IŞIK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـــ– جنوب الأكاديمية– التسعين الشمالي – خلف سيتي بنك– التجمع الخامس– القاهرة الجديدة – مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة – مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة

(٢)

نحو عقيدة صحيحة

تأليف:

محمد فتح الله كولن

ترجمة:

أورخان محمد علي - عبد الله محمد عنتر


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

يتضمـن هـذا الكتـابُ المتواضـع سلسـلةً مـن الأجوبـة الارتجاليـة علـى أسـئلة وُجِّهـتْ فـي مناسـبات مختلفـة، وقد حوفـظ فيه فـي غالب الأحيـان على الأسـلوب الخطابـي الكلامي. ورغـم أنّ الكتاب قد خضـع فيمـا بعـد لبعـض التصحيحـات الطفيفة فـإنّ أسـلوبَ الكتـاب وصياغته الأولـى لـم يتعرضـا لأي تغييـر. والأحـرى أننـا آثرنـا عـدم القيـام بهـذه العمليـة لصعوبـة إعـادة صياغة كلّ شـيء مـن جديد، مما نجـم عن ذلك وجـود بعـض الغموض والقصور في التعبير. ولذا نرجو من قرَّائِنا الأعزاء أن يأخذوا كلّ هذه الملاحظات بعين الاعتبار عند مطالعتهم لهذا الكتاب، وأن ينظروا بعين الصفح إلى ما بدر منّا من سهو أو قصور. وأخيرًا نسألهم الدعاء لنا على الدوام.

محمد فتح الله كولن

مـاهيـة الذات الإلهيـة

سؤال: يقولون: ما ماهية الذات الإلهية ﷻ؟

الجواب: إن الله سبحانه ليس كمثله شيء؛ والحقيقة أن مخلوقًا يعيش في عالم محدود كهذا لا شك أن فكره ونظره وحدسه محدودٌ أيضًا.

فنسبة ما يبصره الإنسان في هذا العالم ٥/١,٠٠٠,٠٠٠ تقريبًا، وكذلك نسبة ما يسمعه، فمثلًا: لا يستطيع أن يسمع صوتًا اهتزازه ٤٠ ترددًا في الثانية، ولا صوتًا بلغ تردده الآلاف، فحاسة السمع عند الإنسان محدودة، لا تسمع إلّا نسبة ضئيلة في المليون، ومجال علمه واطلاعه محدود جدًّا أيضًا، فكيف يستطيع هذا الإنسان المحدود في علمه وبصره وسمعه أن يتجرأ ويسأل: لماذا لا يُرى الله؟ وما هي حقيقته؟ كفى بطرح مثل هذا السؤال جرأةً وتجاوزًا للحدّ، وكذا محاولة إسناد الكمية والكيفية لله تعالى -حاشاه- ومحاولة التفكير في ذاته.

فمن أنت أيها الإنسان وماذا تعلم حتى تتكلّف إدراك ذات الله تعالى؟ إنّ الله تعالى منزه عن الكيف والكم، وهو أجلّ من أن تحيط به مقاييسُك القاصرة، فإن جُبتَ عوالم أخرى في تريليون سنة ضوئيّة ثم أحطتَ بتلك العوالم لم يكن ما شاهدتَه شيئًا أمام سعة وجود الله.

وعندما نعجز علميًّا ولو عن معرفة قارة "أنتاركتيكا"، فكيف يمكن أن نحيط علمًا بذات الله ﷻ خالق الكون ومدبِّره؟ حاشا لله، فالله تعالى مقدس ومنزه عن الكيف والكم لأنه هو الله، لا تدركه التصورات والتخيلات وهو اللطيف الخبير.

يقول علماء الكلام: "كل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك"؛ أما المتصوفة فيقولون: "كلّ ما خطر ببالك فهو وراء وراء ذلك، كيف والحُجُب تحيط بك كأنك في فانوس".

يقول ديكارت: "الإنسان محدود من جميع جوانبه، والمحدود لا يستطيع التفكير في المطلق"، فوجود الله تعالى مطلق غير محدود، فلا يستطيع الإنسان القاصر المحدود أن يحيط به، ويحدثنا الأديب الألماني "جوته" عن هذه الحقيقة فيقول: "يذكرونك بألف اسم واسم، أيها الظاهر الباطن! ولو ذكرتك بآلاف الأسماء لا بألف اسم فحسب لما ذكرتك حق ذكرك، فأنت أعلى من أن يَصِفك الواصفون".

يرى المفكرون أن الله موجود ولكن وجوده لا يدرَك، فيستحيل على الأذهان أن تحيط به، فالعين لا تستطيع رؤيته والأذن لا تستطيع سماعه، فالزم غِرزَ الأنبياء في إيمانك به سبحانه.

كيف يمكننا أن ندرك الله تعالى وهو خالق الوجود وأصل العلم، فوجودنا ومضة من نور وُجوده، وعلمنا نفحة من علمه الإلهي المحيط بكل شيء؛ أجل، هناك طريق لمعرفة الله تعالى وبلوغ مرتبة العرفان، إلا أن له حدًّا ينتهي إليه، ولكن هذا الطريق مغاير للطريق المعتاد في معرفة الأشياء، فمن يحاول معرفة الله بسلوك طريق غير طريق معرفته سبحانه هُم البؤساء ممن لم يستطيعوا التغلب على غرور أنفسهم، وجهلوا معنى المشاهدة القلبية، ولم يتذوقوها؛ فتراهم يقولون: "بحثتُ عن الله فلم أجده"، وهذا ضلال كبير وقول زائف باسم العلم والفلسفة.

الله تعالى هو الإله الذي يُرينا وجوده بل وجوبَ وجوده في الآفاق وفي أنفسنا أثناء معراج الروح والقلب إليه، ويُشعِرنا بنفسه في أعماق قلوبنا وأرواحنا؛ وهذا الحدس الوجداني هو أساس جميع علومنا،

وهـو أقـوى من جميـع علومنـا القاصرة ومن عقولنـا وأفكارنا، ومـع هذا فكثيرًا ما نذهل عن وجودنا وعن هذا الحدس الوجدانيّ، فنضل ونشقى.

الكونُ ألفُ لسان ولسان يذكّرنا بهذا، والقرآن يفعل ذلك بأبلـغ بيان، وكفى برسولنا ﷺ مبلِّغًا لهذه الحقيقة العالية.

روي في الأثر: **"مَا وَسِــعَنِي سَــمَائِي وَلَا أَرْضِي؛ وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ"**[١].

(١) السخاوي: المقاصد الحسنة، ص. ٥٨٩.

معرفة اللّه

سؤال: هل يمكن معرفة ذات الله وتعريفها؟

الجواب: لا نستطيع معرفة شيء عن الله إلا ما بلغَنا عنه، ولا يمكن للعقل أن يدلي بشيء في هذا، فدوره الاستجابة لإرشاد الوحي في هذا، وهاكم مثالًا يوضح هذا الأمر:

لنفرض أننا جالسون في بيت، وسمعنا الباب يطرق... أجل! الباب يُطرق فعلًا، فتجاوز بعضنا مدلول طرق الباب، وأدلى كلّ برأي مختلف حول هوية من يطرقه؛ وتفكيرنا هذا يسمّى "التصور"، ورأى آخرون أنه لا مجال للتصور هنا، وأن على العقل التصديق بأن هناك شخصًا ما وراء الباب، ويترك للشخص القادم أن يعرف نفسه، وهذا يُسمَّى "التعقل".

وبتطبيق هذا المثال على موضوعنا نقول:

إننا نحاول معرفة الله تعالى بالانتقال من آثاره إلى أسمائه، ومن أسمائه إلى صفاته، ومن صفاته إلى تجليات ذاته؛ أي ننتقل من تجلياته في آثاره إلى تجلياته في أسمائه سائحين في الكون للوصول إلى تجلياته في صفاته، ونتحول من الغيب إلى الشهود؛ وكلما ازدادت أشواق مشاهداتنا تقلبنا في حالات السكر والذهول والغياب عن الوعي، فأحيانًا ننبسط بأنسام الجمال والحنان، وأحيانًا نرتجف خوفًا ومهابة.

إننا لا نستطيع قول أي شيء في الذات الإلهية بمقاييس معارفنا ومعلوماتنا، فعلينا أن نحيل معرفته تعالى إلى الوجدان؛ فللوجدان لسان خاص ولهجة خاصة به، وهو نقطة الْتقاء عالم الغيب بعالم الشهادة.

أجـل، الله تعالـى معلـوم بأسـمائه، وأسـماؤه تـدل على صفاتـه، وله ذاتٌ مقدَّسـة لا نعـرف كنهها، كما قال أبـو بكـر الصديـق ﷺ: "العجز عـن درك الإدراك إدراك"، وهـو ﷻ معـروف ومعلـوم لكـن فـي إطـار مـا يُعـزى إلى النبـي ﷺ أكبرِ معـرِّفٍ وأعظمِ دليل على الله: "سـبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك"(٢).

وبتعريـف القـرآن الكريـم لأفعـال الله ﷻ يتبيـن أنه المعبـود المطلق الموصـوف بصفات الكمال، وأنّه يمكن لقلوبنـا أن ترتقي لمعرفته، لنرى كمال جماله ﷻ.

إذًا نستطيـع أن نجدد عهدنا ونقول:

"أيهـا المعبـود المطلق، لا نسـتطيـع معرفتك حق المعرفـة، إننا نعلم أنـك أقرب إلينـا من حبل الوريد وندرك مدى عظمتك وقدرتك على طي السـموات جميعًا كطيّ السـجل للكتب، ونتلمس النظـام الرائع والتناغم البديـع الذي وضعته بين عين البعوضة والمجموعة الشمسـية، فذلك كله طريـقٌ نورانـيّ لأرواحنا، لقد تعرفنـا عليك بآثارك في مئـات الآلاف من خلقك، فتَوحّدْنا بتجلياتك، وظفرنا بالطمأنينة".

والله أعلم بالصواب.

(٢) المناوي: فيض القدير، ٤١٠/٢.

وحدة الوجود

سؤال: ما هي "وحدة الوجود" وهل توافق عقيدة أهل السنة؟

الجـواب: الحديث في وحدة الوجود من شـأن المتصوفـة غالبًا، وهي مسـألة "حـال" أو "ذوق" عنـد أهـل التحقيق، لكن جاء مَن ألبسـها لباسًـا فلسفيًّا وفهمها على غير ما هي عليه، وجاء من لم يفرق بينها وبين "وحدة الموجود (الوحدوية/*Monism*)".

ولهذه المسألة شأن مهمّ في تاريخ الفكر الإسلامي، وما زال الخلاف فيهـا بين الإفـراط والتفريـط، إنها مسـألة متعلقة بالذات الإلهية مباشـرة، وأثارت جدلًا واختلافًا كبيرًا، وهذا إما بسبب القصور في التعبير، أو بسبب تطبيقِها على عالم الشـهادة، أو لمشـابهتها لفكرة "بانتَئيزم (*Pantheism*)" التي تصطبـغ بالهوية الفلسفية.

وللتوحيد ثلاث مراتب عند أصحاب مدرسةِ وحدة الوجود:

١- توحيـد الأفعال (إسـناد كل فعل في الكون إلـى الله ﷻ): الأفعال كلها أيًّا كان سببها هي أفعال الله مباشرة، ولا داعي لتحري أي سبب آخر وراءها. ولا داعي للحديث هنا عن مسألة "الخلق والكسب" التي هي من مسائل علم الكلام، والتي ورد ذكرها عند الإجابة عن أسئلة القدر.

ويُسـتدل على هذا بقـول الله ﷻ: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سُـورَةُ الصَّافَّـاتِ: ٩٦/٣٧)، وقولـه عزَّ مِـن قائل: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ**﴾ (سُـورَةُ النِّسَـاءِ: ٧٨/٤) ونحوهما من الآيات القرآنية.

٢- توحيد الصفات: الاعتقاد بأن القدرة كلها قدرة الله، والعلم كله هو علم الله، والإرادة جميعها إرادة الله، والقوى بمختلف أنواعها مصدرها قوة الله جلَّ جلاله.

٣- توحيد الذات: ليس هناك إلا وجود واحد، وهو وجود الله، وما سواه مما نشاهد ليس سوى ظهور وتجليات منه على مختلف المراتب.

وكل هذه المراتب قابلة للمناقشة حتى الفروق الطفيفة بين كلمتي "الظهور" و"التجلي"، ولكن موضوعنا هنا توحيد الذات، فسنقتصر عليه. وإذا ما انحصر هذا المفهوم في "الذوق" و"الحال" فلا مجال لنقده أو الاعتراض عليه.

إن إسناد الأشياء والحوادث إلى الله وأسمائه واجبٌ عقلًا ونقيضه محال كما يعرفه أهله، وهذا قريب من مفهوم التوحيد عند أصحاب هذه المدرسة، ووِجهة نظر الصوفية مثله.

ويقسّم الإمام سعد الدين التفتازاني في كتابه "شرح المقاصد" القائلين بوحدة الوجود قسمين، ويعد أحدهما من أهل السنة، وأمرُ هؤلاء لم يكن محل نزاع قط كما ذكرنا.

نعم، إنه يَقْسِمُ القائلين بوحدة الوجود إلى زمرتين: الصوفية والمتصوفة؛ أمّا الصوفية فيعترفون بالكثرة في "الوجود" كما يعترفون بها في "الموجود"(٣)، لكن طالب الحقيقة عندما يصل إلى الله يجد نفسه مستغرقًا في بحر المعرفة، ويشهد فناء ذاته أمام ذات الله، وصفاته أمام صفات الله، ويتلاشى في نظره كل ما سوى الله؛ وعندئذ يَعدّ السالك وجوده ملتقى تجليات الحق، وهذا ما يسمّيه الصوفية "الفناء في التوحيد"؛

(٣) إن "وحدة الوجود" تختلف عن "وحدة الموجود" اصطلاحًا؛ أي إنهما مصطلحان مختلفان، وكذلك الحال في "الكثرة"، تختلف في معناها في "الوجود" عن معناها في "الموجود".

وكثيرًا ما ينتج عن اختلاط الأحوال في هذه المرتبة كلام تُشَم منه رائحة "الحلول" و"الاتحاد".

هذا التوحيد عند طائفة من الصوفية هو مقتضى مقام "الجمع"، وهذه مسألة عرفان ثم مسألة ذوق، واعتراف الإنسان في هذا المقام بوجود حقيقي لما سوى الله مخالفٌ لمشاهدته وإحساسه؛ فمن سلّم بوجود الأشياء والأسباب وهو في هذا الحال شعر أنه أشرك بالله ﷻ، وبالعكس إن إنكار الأسباب دون بلوغ هذا المقام وهذا الحالِ رياءٌ وادعاء باطل؛ فمن لم يذق "الجمع" حُرم من المعرفة، ومن لم يذق "الفرق" حُرم من أسرار العبودية، أما الكامل فهو يُقرّ بالجمع في موضعه والفرق في موضعه.

وأما الزمرة الثانية -وهم المتصوفة- فهم القائلون بوحدة الوجود مباشرة، فالوجود عندهم واحد، وهو وجوده سبحانه، أما الكثرة التي تشاهد في الكون فمحض خيال وسراب.

إذًا وحدة الوجود عند الصوفية حالٌ من الأحوال وذوق من الأذواق الروحية، أما عند المتصوفة فنظريّة وفكرة فلسفية؛ ومَن نحا نحوهم من المتكلمين مثل جلال الدين الدواني ليسوا أقلّ عددًا ولا حماسًا في دفاعهم المستميت عنها؛ أما علماء أهل السنة من عصر السلف إلى يومنا هذا فهم متفقون على أنَّ "حقائق الأشياء ثابتة".

يذكر شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين" أنّ وحدة الوجود مردّها إلى القول بأن وجود الله عين ذاته، لكن المتكلمين يرون أن صفة الوجود زائدة على الذات كسائر الصفات، وواجب الوجود وممكن الوجود في هذا سواء؛ ويرى الإمام الأشعري أن الوجود عين الذات في واجب الوجود

والممكنات، ووافقه الفلاسفة في الواجب لا في الممكن، حيث يرون أنّه ليس للأشـياء إلا وجود اعتباري نسـبي، والموجود الحقيقيّ هو ذات الله ﷻ؛ لأنّ وجود الله عندهم هو عين ذاته، ولأنّ الوجودَ هو وجوده تعالى.

والسـؤال هنا: هـل تُعَدّ صفة الوجود وغيرُها من الصفات السـبحانية عينَ ذاته تعالى أو غيرهَا؟ مسألةٌ فيها نزاع منذ قرون، لكن اتهام طائفة بينها كثيـر مـن علماء الأمة بأنهم وراء اتجاه الناس إلى وحدة الوجود أو وحدة الموجـود ينتـج عنه تضليلُ هذه الطائفة بمن فيها، وهذه تهمة عظيمة ينوء بها كاهل صاحبها.

يقـول جلال الدين الدواني في رسـالة "الـزوراء" ما يفيد أن وجود الله هـو عينُ ذاته، وأنـه تعالى الموجود الحقيقي الوحيـد، وليس معه موجود حقيقـي آخـر، وأن الوجـود -مـن حيث إنـه وجود- منحصر فـي وجوده تقـدس وتعالـى؛ وهـذا يعني أن وجـود غيـر الله وجود اعتبـاري مجازي لا حقيقي، ويذهب الدواني في هذا الكتاب إلى أبعد من ذلك فيقول:

"إن حدوث الشيء لا عن شيء محالٌ، إن الشأن في الحدوث الذاتي أيضًـا كذلك، ما أيسـره أن تمـارس ذلك. فإذًا المعلولُ ليـس مُباينًا لذات العلـة ولا هـو ذاتـه، بل هو بذاته لذات العلة شـأنٌ من شـؤونها، وجهٌ من وجوهها، حيثيَّةٌ من حيثياتها... إلى غير ذلك من الاعتبارات اللائقة.

فالمعلـولُ إذًا ليـس إلا اعتباريًّا محضًا، إن اعتُبر من حيث نسـبته إلى العلة وعلى النحو الذي انتسب إليها كان له تحقُّقُه، وإن اعتُبر ذاتًا مستقلًّا كان معدومًـا بل ممتنعًا، والثـوبُ إذا اعتُبر صورةً في القطن كان موجودًا، وإذا اعتُبر مباينًا للقطن ذاتًا على حياله كان ممتنعًا من تلك الحيثية؛ فاجعل ذلك مقياسًا لجميـع الحقائق تعرف قول من قال: الأعيانُ الثابتة ما شمّت رائحةَ الوجود، وإنها لـم تَظهر ولا تظهر أبدًا، بل إنما يَظهر رسمُها.

لمـا كان منتهى سلسـلة العلّيّة واحدًا والكلُّ معلـولٌ له إما ابتداءً وإما بواسـطة فهو الذات الحقيقية، والكلُّ شـؤونُه وحيثياتُـه ووجوهُه إلى غير ذلـك مـن الاعتبـارات اللائقة، فليس فـي الوجود ذواتٌ متعـددة بل ذاتٌ واحـدة لهـا صفـاتٌ متكثـرة؛ قـال الله تعالـى: ﴿**هُـوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّـلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**﴾ (سُـورَةُ الْحَشْـرِ: ٥٩/٢٣)"[٤].

ويذهب الشيخ محيي الدين بن عربي إلى أبعد من هذا وذاك، فيقول: هـذا العالم المشـهود مَظهر وصورة، وليس موجـودًا حقيقيًّا، ولا موجودًا لـه دوام؛ فـالله يتجلى دائمًا، والعالم يتجدد باسـتمرار، فالتجليات تتوالى، والعالم يتردد بهذه التجليات بين العدم والوجود، وإنما لا نرى أي انقطاع في الوجود لسرعة التجليات وتتابعها.

وبمثـل هذا قـال مولانا جلال الدين الرومي بأسـلوب ثـريٍّ متلألئ، يقول:

"ومـن نكون نحنُ؟ يا مَن أنت لنا روح الروح، حتى يكون لنا وجود مع وجودك!

نحـن عـدم، ووجودنـا أنـت، ذلك أنـك وجود مطلـق يُبدي الفانيات الزائلات.

ونحن كلنا أُسـودٌ لكن أسود العَلَم، يكون هجومها من الريح لحظة بلحظة.

وهجومهـا ظاهـر، لكـن الرياح ليسـت ظاهرة، فـلا جعل الله مفقودًا ذلك الذي ليس بظاهر.

وإن رياحنـا ووجودنـا مـن عطيتـك، ووجودنـا بأجمعـه من إبداعك.

---

(٤) جلال الدين الدواني: رسالة الزوراء، ص. ٢-٤.

لقـد أظهـرتَ للعـدم لـذة الوجود، وكنـتَ قد جعلـت العدم عاشقًا لك"[٥].

فمثـل هـذه الفكـرة التي تَعـدّ كلَّ التقلبـات والتموجات فـي الكون تجلياتٍ للحقّ ﷻ لا تَنسب صفة الوجود لأي شيء سوى الله؛ فنسبة صفة الوجـود لغيـر الله عندهم مجـاز روعيت فيـه الصورة؛ أمَّا التنـوع والكثرة في الأشياء التي هي تجليات الحق فمردُّهما إلى اختلاف استعدادات مرايا التجليات اختلافًا لا يغير شيئًا في وحدة الوجود.

ويُعبّر الجنيد البغدادي عن هذا المعنى بقوله: "لونُ الماء لونُ إنائه".

الوجـود الحقيقـي إذًا واحد كالنور تمامًا، والكـون كله انعكاس لهذا النور وتَموُّجٌ له، مثل الغيث والبَرَد والثلج صورها مختلفة وحقيقتها صور لشـيء واحد، فالأشياء والحوادث الجارية جريان السيل صورها مختلفة، وحقيقتها جلوات لحقيقة واحدة.

هذه الآراء والأقوال تكشـف أن المتصوفة الذين فهموا وبحثوا مسألة "وحدة الوجود" على أنها مسـألة فلسـفية زلّت ألسـنتهم بكلمات تتضمن أو توهـم معنـى الحلول والاتحاد، بينما عقيـدة الصوفية الأوائل وأقوالهم فـي مسـألة التوحيد خالصة صافية من كل هـذه الإيهامات، ولا تدلّ على أكثر من "وحدة الشهود".

نعم، لم يكن بوسـع المتصوفة التخلـص من هذا الأمر؛ فهي عندهم مسـألة علمية فلسـفية، ويسـتدلون على معتقداتهم بآيات وأحاديث، منها هذه الآيات الكريمات:

١ - ﴿فَلَـمْ تَقْتُلُوهُـمْ وَلَكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُـمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْـتَ وَلَكِنَّ اللّٰهَ رَمى﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ١٧/٨).

(٥) مولانا جلال الدين الرومي: المثنوي، [ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا]، ٨٧/١-٨٨.

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/١٠).

٣- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سُورَةُ ق: ٥٠/١٦).

ومن الأحاديث:

الحديث القدسي:

"إِنَّ اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: "يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؛ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؛ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي"[٦].

والحديث القدسي:

"مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ؛ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[٧].

ويمكن سرد ما يستدلون به من النصوص، وفي هذا القدر كفاية.

---

(٦) صحيح مسلم، البر، ٤٣.

(٧) صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨.

وقد أفاض كبار رجال التصوف في بحث هذه المسألة، فلا داعي -في جواب سؤال- أن نستطرد في تاريخ وحدة الوجود، وليس هذا موضع بسط الكلام فيه، فنكتفي بمثالين فقط:

ففي الآيتين الأوليين ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللّٰهَ رَمى**﴾، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ**﴾ الصواب في تفسير مثل هذه الآيات حملُها على المحكمات وتفسيرُها تفسيرًا منطقيًّا لا يورث تعارضًا بين مدلول آيات القرآن الحكيم، وهذا ما فعله المفسرون العظام حتى اليوم.

ولا يختلف كثيرًا إن كان المرادُ من هاتين الآيتين هو نسبة الأفعال إلى الله تعالى أيًّا كان فاعلها، أو عَدّها من معجزات النبوة، أو أن الله تعالى أضاف فعلَ أشرفِ عبادِه ﷺ إلى ذاته ﷻ لإظهار شرفه أو صواب فعله ﷺ أو لتأييده...

نعم، تأويل الآيتين بوجه من مثل هذه الوجوه سائغ، ولا شيء فيهما يشير إلى وحدة الوجود، بل تشيران إلى ثبوت حقيقة الأشياء؛ لأنهما تبينان أن المؤمن غير الكافر، وأن هناك قاتلًا وآخر مقتولًا، وأن هناك مع المتكلم مخاطبًا وغائبًا، فهذا كله يغاير بعضه بعضًا، ولا تُستنبط وحدة للوجود من مثل هذه الآيات إلا بتأويلات متكلفة.

أما الآية الأخيرة ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ فيستحيل قطعًا أن تُستنبط منها وحدة الوجود.

وأما الأحاديث التي يستدلون بها فلا تشير إلى وحدة الوجود، بل تنص على الكثرة في الوجود بشكل جلي.

ومن عقيدة الحلول والاتحاد التي يرفضها الجميع حتى المتصوفة القولُ بوجود العبد مع وجود الرب قبل أن يحظى العبد بالقرب من ربه، ثم ادعاءُ الوحدة بعد ذلك.

بل إن ما يقوله أهل الله يخالف مقصد هؤلاء، فكلامهم يشير إلى "الاثنينية"، وإن بدا أنه يؤيد وحدة الوجود:

"حينًا تكون شمسًا وحينًا تصير بحرًا، حينًا تصير جبل "قاف" وحينًا تصير "العنقاء".

ولا أنت هذا في حد ذاتك، ولا أنت ذاك، يا من تعلو على الأوهام، وتكثر على الكثير.

ومنك يا نقشًا كثير الصور، يكون المشبِّه والموحِّد ومن هو حائر بينهما!"[٨].

والاثنينية هنا ظاهرة لا تحتاج إلى تأويل.

والواقع أن المتصوفة يتجولون في ميدان الكثرة أيضًا؛ فبينما يبحث بعض الناس في عباراتهم المزينة عن أدلة على وحدة الوجود، لا تخلو أقوالهم عما يعبر عن الكثرة مثل "قتل النفس" و"إفناء الأنا"...

لماذا يعانون مثل هذه المشاق في التزكية من النقائص وبلوغ الكمالات إذا كانوا يدّعون الوحدة وينكرون حقيقة وجودهم، وميزان هذه الشخصيات العظيمة في عبوديتها لله تعالى فيه حساسية تنفي قطعًا نظرية وحدة الوجود الفلسفية:

إنّ مؤيد هذه النظريةِ الذي يعتقد بأنه مكلَّف بتكاليف شرعية يكون قد ميّز أولًا بين المأمور والآمر، فدعوى وحدة الوجود مع الاعتراف

(٨) مولانا جلال الدين الرومي: المثنوي، [ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا]، ٢/٢٩-٣٠.

بالتكليف فيها ما فيها من التناقض؛ فلم يجرؤ أحدٌ من المؤمنين قط على إنكار أننا مأمورون بأوامر الله سوى زنادقة أنكروا التكليف أصلًا.

فمفهوم وحدة الوجود عند الصوفيّة ينحو إذًا نحو وحدة الشهود، أو معناه في الحقيقة وحدة الشهود؛ وهذا المفهوم عندهم مردُّه إلى الاستغراق وتغلُّبِ "الحال" عليهم والقصورِ في التعبير عما يجدونه في أفئدتهم؛ أما مفهوم وحدة الوجود لدى المتصوفة فهو تفلسف في هذا الإدراك القلبي والمشاهدةِ المعنوية بل إنه تَبَنٍّ لفكرة فلسفية غربية.

ولا ينبغي لأحد أن يظن أن كبار علماء المسلمين يدافعون عن فكرة "بانتئيزم" رازحين تحت تأثير الأفلاطونية الحديثة (*Neoplatonism*)، بل غاية ما يمكن قوله أن هؤلاء العظام لم يروا بأسًا عند الإفصاح عن مشاهداتهم وإحساساتهم في استعارة بعض الألفاظ والتعبيرات من "نيو بلاتونيزم"، لكن هناك بون شاسع بين الفريقين في مفهوم الذات الإلهية.

فأمثال هؤلاء ممن يوازنون بين الدنيا والعقبى كما جاء في القرآن الكريم لا يمكن أن يعتقدوا بمثل ما يعتقده المتصوفة من وحدة الوجود، والدليل على ذلك ما يأتي:

١- الاعتقاد بأنّ الإله يسري في الكون كله في كل مكان وفي كل شيء يعني أنّ كل شيء إلهٌ ثمينًا كان أم خسيسًا، وهذا ما يرفضه العقل والنقل قطعًا.

٢- يبرهن القرآن بالأشياء أحيانًا على وجود الله ووحدانيته، وهذا دليل على أن حقائق الأشياء ثابتة.

٣- في القرآن الكريم آيات كثيرة تنص على أن كل شيء هالك إلا هو سبحانه، ثم تبشر بالعوالم الجديدة المعقِّبَة لهذا الهلاك؛ فالهلاك فناء شيء موجودٍ، والكلام عن هلاك ما لم يوجد أصلًا عبثٌ لا معنى له، والقرآن منزَّه عن العبث.

٤- الأنبياء والمرسلون كلهم علَّموا أممهم وقرّروا أنّ كل شيء كبيره وصغيره أُوجِدَ وخُلق بعد عدم، وأن علاقته بمن أوجده علاقة مخلوق بخالقه؛ فما يقوله المتصوفة حول وحدة الوجود يكذّب الأنبياء وما أوحي إليهم، وهذا افتراء قبيح وتجاوز شنيع على من هم أصدق الناس حديثًا.

٥- في القرآن الكريم آيات ترغيب وترهيب، تبشِّر المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب، فهذه الآيات لن تكون لها دلالة على شيء وفقًا لمفهوم وحدة الوجود؛ فالقول بوحدة الوجود يستحيل أن تجيب معه عن الأسئلة التالية: "من المطيع؟" و"أين الثواب؟" و"من المجرم؟" و"ما العقاب؟".

٦- لو عُدَّت الأشياء هي هو ﷻ، والحوادث الجارية جريان السيل مَظهرًا من مظاهره فلا معنى لذمّ الشرك والمُشرك والأصنام وعبدة الأصنام؛ فما دام كلّ حادثة مَظهرًا من مظاهره فلا يُتصور أن تكون غيرَه؛ لكن القرآن والسنة أثبتا عقيدة التوحيد، وهما أعظم خصم للشرك وعبادة الأصنام.

٧- مفهوم وحدة الوجود الفلسفي يستلزم قِدم المادة، وهذا كفر بالإجماع، وأولياء الله برآء من ارتكابه.

٨- كلُّ ما أُورد دليلًا على وحدة الوجود، يدل في الحقيقة على الكثرة في الوجود.

وبعـد كل ما ذكرناه نقـول: إن بين مفهوم وحدة الوجود عند الصوفية والذي عند الفلاسـفة فروقًـا واضحة كثيرة، فهي عند الفلاسـفة (بانتئيزم) تبدو في الظاهر شـبيهة بما عند الصوفية، لكنها ترى أنَّ الله والعالم شـيء واحد، وهذا يحتمل معنيين:

١- الموجـود الحقيقـي الوحيد هو الله، أمـا العالم فمجموعة مظاهر أو أشكال وفيوضات، وهذا ما ذهب إليه "سبينوزا (*Spinoza*)".

٢- الموجـود الحقيقـي الوحيـد هـو العالـم، والله -حاشـا لله- هـو مجمـوع الكائنات، وهذا مذهب الوجودية الطبيعيـة أو الوجودية المادية، وعليه "هيجل (*Hegel*)" وأنصاره.

وعلى ذلك نقول:

يعبـر الصوفية عن فنائهـم في واجب الوجود بإنكار العالم؛ أما هؤلاء فيحاولون إنكار خالق العالم.

وتستلزم فكرة وحدة الوجود لدى الصوفية "وحدةَ الشهود"؛ أما نظرية الآخرين فتستلزم "وحدة الموجود (*Monism*)".

وقـع فـي كلام الأوليـن (الصوفيـة) متشـابهات لقصـورٍ فـي التعبير عـن أحوالهـم ومشـاهداتهم واسـتغراقاتهم؛ أمـا الآخـرون فسـلكوا هذا المسلك للتفلسف.

والأولـون ينطلقـون مـن اعتقادهـم بـالله، ثـم ينظـرون إلى الأشـياء والحـوادث ويقيّمونهـا فـي ضوء هذا؛ أمـا الآخرون فنظريتهـم تجعل الله -حاشا لله- تابعًا للكائنات.

إن ما عند الأولين ذوق روحانيّ؛ وما عند الآخرين نظرية صِرفة.

ومسلك الأولين قائم على التواضع وإنكار الذات؛ أما مذهب الآخرين فقائم على "التشبُّه بواجب الوجود" تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والله أعلم بالصواب.

التنــاسخ ورأي الإسلام به

سؤال: ما معنى تناسخ الأرواح؟ وما موقِفُ الإسلام منه؟

الجواب: التناسخ لغةً من النسخ، واصطلاحًا: انتقال الأرواح من جسد إلى آخر؛ ويطلق عليه الفرنسـيون "ميتامبسـيكوز" أي التقمص، والقائلون به يرون أن الأجسـاد أشـبهُ بقوالب للأرواح كأنها ثكنة عسـكرية، تدخلها الأرواح وتعيـش فيها وتَعمُرها، فإذا ما تحللت الأجسـاد انتقلت الأرواح إلى أجساد أخرى، وتظل كذلك في تداولٍ زمنيٍّ مستمر.

وقـد نجد عقيدة التناسـخ لدى أكثر المجتمعـات البدائية، لكن تظهر فـي صور شـتّى وفقًا لعقيدتهـم وثقافتهم المحلية واختـلاف بيئتهم؛ فثمة اختـلاف بيِّـن فـي مفهـوم التناسـخ بيـن المصرييـن القدمـاء والهندوس المفتونيـن بالخلود، ولـه معنى مغاير جذريًّا لدى الفلاسـفة اليونانيين في عباراتهم الثرية المزخرفة.

واشتهر التناسخ كثيرًا في عصرنا الذي كثرت فيه التجارب الميتافيزيقية المتنوعة، وغدا اليوم مذهبًا عقائديًّا أساسه انتقال الأرواح، وعظُم الاهتمامُ بهـذه النوعية من المسـائل، وغدت ردَّ فعل للفشـل الـذي منيت به المادة لا سيما في المحافل الاجتماعية الراقية، حتى إنّه ما اجتمـع نفر في مكان مـا إلا دار بينهـم حديثٌ عن تأثير مـا وراء الطبيعة فـي الطبيعة وقوانينها، وظهورِ الأرواح وتنبيهِها وتنويرها أو إغوائها وتضليلها.

وأريـد أن أنتقـل إلـى موضـوع السـؤال مـع إشـارة إلى منشـأ ظاهرة التناسخ؛ إذ لا يتسـع الجواب للتفصيل في تاريخ التناسـخ أو في حوادث ما وراء الطبيعة وما وراء علم النفس في أيامنا.

مـن النـاس من يـرى أن عقيدة التناسـخ قديمـة ولها جـذور عميقة، فأكثـروا مـن نسـج الأسـاطير حولهـا، وعدوا قصـص هيـرودوت حقيقة -وجُلّهـا أسـاطير كاذبـة-، ودعامـة لهـذا الأمـر حاولوا حشـد الأكاذيب الوهميـة فـي الحكايات الشـعبية الـواردة في مؤلفات "أوفيـد (*Ovide*)"؛ وزعـم قـوم أن رحلة الأرواح هذه ليسـت في البشـر فحسـب بل تشـمل الحيوانات والنباتات، قال شـارح كتـاب "جامكيتنوما (*Camgitinüma*)": يـرى القائلـون بتناسـخ الأرواح أنّ رحلة الأرواح تمتـد إلى الموجودات كلهـا؛ فثمـة موكـب مـن الأرواح يتنقل من أبدان البشـر إلـى الحيوانات، فالنبـات، فالجمادات والمعـادن، ومن البر إلى البحر وعكسـه. ويطلقون "النسـخ" على انتقال الروح من جسـم إنسـان إلى آخر، و"المسـخ" على انتقالهـا إلـى جسـد حيوان يناسـبها، و"الرسـخ" على انتقالها إلـى النبات والأشجار، و"الفسخ" على انتقالها إلى الجماد.

هـل تأثـرت هذه العقيدة بمفهوم الروح الكليـة، وما علاقتها بالحلول والاتحاد؟ من الصعوبة بمكان أن ننكر أن هاتين النظريتين المنحرفتين هما منشـأُ التناسـخ، وذكر "تايلور (*Taylor*)" أن لمفهوم التناسخ علاقةً وطيدة ببقـاء الـروح الذاتي، وحاولوا قرونًا طويلةً تفسـير شـبه الأبنـاء والأحفاد بالأجداد بمسألة التناسخ؛ ونحن نفسره اليوم بقانون الوراثة.

قيـل: كانـت بداية ظهـور عقيدة التناسـخ في حوض النيـل، ويمكن استشـعار هـذا إلى حد ما في أوجـه المومياوات البشـعة وفي الأهرامات الحافلـة بالأسـرار؛ وهـذه العقيدة انتقلت مـن مصر إلى الهنـد ومنها إلى اليونان، واتُّخذت أملًا وسـلوى في قلب الإنسـان التوّاق إلى الخلود، بين أقوال الفلاسفة الأخاذة، ونغماتِ أهل "الغانـج" و"السِّنْد" المفتونين بفكرة الخلود. وبعضُ "الكاباليّين" أدخلوا فكرة التناسخ إلى عقائد بعض الأديان السـماوية، وتأثرت بها فرقة من متصوفة الإسـلام رغـم رفض المتكلمين

لهـا جذريًّـا؛ وأتـى كلٌّ بأدلـة على دعـواه، فمثلًا ذكـر الكاباليـون ما جاء في التوراة من أن بطلة الأسـاطير اليونانية "نيوبي (*Niobe*)" غدت رخامًا، وزوجة لوط عليه السلام تمثالًا من غبار؛ والذين جاؤوا من بعدهم ذكروا مسخ طائفة من اليهود قردة، وأخرى خنازير؛ وبلـغ الأمر بأناس أن أحلّوا الروح في كل شـيء فقالوا: سرّ الانسياق الفطري لدى الحيوان والنظام والتناغم لدى النبات هو انتقال أرواح الناس إليهما.

والقـول بمثـل هـذا الحكم الصـادر عن غيـر رويّةٍ في حق الإنسـان لا يمكـن إلا بتكلـف، دع عنـك تعميمـه علـى النبـات والجمـاد، فقليـلٌ من التفكير يرشدك إلى أنه مستحيل.

ولا جـرم أن الجمـادات والنباتات لهـا برنامج معين وقَـدَرٌ يصرفها، أما إسـناد ما فيها من نظام وميزان إلى أرواح ذات تجارب تحُلّها فهو أمر باعثٌ على السخرية، ولا أصل له مطلقًا، والحق أن للنبات والشجر حياة نباتية خاصة، لكنها ليست ألبتة روحًا إنسانيّة تدنَّت أو مهيّأةً للرقي ومرشحة لتبلـغ مسـتوى الإنسـان؛ ورغـم هـذا القدر مـن الأبحـاث والاختبارات لم تقف البشـريةُ على رسـالة من أي نبات تثبت وجود روح إنسانية خبيرة تديـره، ولا علـى أي ذكـرى للحياة النباتية والحيوانيـة في أي روح تعيش مرحلـة الإنسـانية -بزعمهم-، ومِن أكبر أدلّتهـم على عقيدتهم هذه انتقالُ المعلومات والذكريات القديمة؛ بيد أننا لم نسمع حتى الآن سوى هذيان بضعة مجانين أو جملة من الأخبار المثيرة.

ومـا ورد فـي التوراة عن مسـخ "نيوبي" رخامًـا، و"والهة" زوجة لوط عليه السلام تمثالَ غبار لا دليلَ فيه على التناسـخ ألبتة، هب أنا سـلّمنا بهذا رغم مـا فيه لكنّ معنـاه أنَّ الروح لما قُبضت اصطلى الجسـد بلفح النار، فغدا غبـارًا بمقتضـى نوع البلاء الذي حلَّ بـه، أو أنّه قد تصلَّب مثل الجمادات تحت الحُمَم البركانية.

نعـم، أنـواع الأحافير التي عثر عليها فـي أنحاء العالم كافّة لا تُعَدّ ولا تُحصَـى؛ فمثلًا جَعلـت حمم بركان فيزوف مدينةَ بومبـاي الإيطالية كومة ركام، ثـم كشـفت الحفريات التي أجريت هنـاك بعد عصور عن مجموعة كبيرة من التماثيل الرخامية أمثال "نيوبي"، وعندما ننقب في ركام الأنقاض اليـوم نسـتوحي منها العبرة، ونـدرك أن حياة ملؤها الخـزي والعار كانت وراء طغيان الناس، ونرى آثار غضب الله عليهم.

وهـذه المـادة الإثنوغرافية إنمـا أُودعت في حِجر المسـتقبل المكين لتكون عبرة؛ وتفسـير ذلك بالتناسخ دعوى بلا بيِّنة، واستخفاف بالعقول؛ إذا كان التناســخ انتقالَ أرواح من أجســاد الموتى إلى أجســاد أخرى فأية روح انتقلـت؟ وفي أيِّ جسـد حلَّتْ؟ نعم، قد قُبضـت أرواحُ قوم أكثرُهم مجرمون ومُسخت أجسادهم حجارةً لتكون عبرة ودرسًا للاحقين.

لقـد تطورت عقيدة التناسـخ في مصر واليونان وحـوض نهر الغانج أمـلًا فـي خلود الروح، وقد اسـتندت على عقيدة أخرويـة وُظِّفت توظيفًا منكـرًا. لـم يكن أحد في مصـر "أخناتون" أو في يونـان "فيثاغورث" يعلمُ شـيئًا عن عقيدة التناسـخ التي أظهرتها التحريفات؛ كان أخناتون يرى أنّ الإنسـان يبدأ حياة سـماوية جديدة بانقضاء حياتـه على الأرض، فلا يكاد يمـوت حتى تعرج روحه إلى المحكمة الكبرى في السـموات العلى، وما تزال ترتفـع حتى تمثل بين يدي "أوزوريس" لتُقِرَّ بما كانت عليه في الدنيا وتحظـى باللحـاق بجماعته؛ وصيغـة الإقرار: "جئتك مبـرَّأً من كل ذنب، وقضيت حياتي فيما يرضي الربانيين، لم أقتل ولم أسـرق ولم أفسـد ولم أسـئ إلى أحـد ولم أرتكب الفاحشـة..."؛ أما الروح التـي تخفق في ذكر هذا فتطيش كِفّتها، فيؤمر بها فتطرح في جهنم، وتمزقها زبانيتها إِرْبًا إِرْبًا.

ونكاد نلمس عقيدةً صافية نقية أيضًا في كتابات جَلَّت الحقائق الإيمانية في ديانة أخناتون، يقول: "ما أكثر نعماءك! والناس عنها غافلون، أيها الإله الأحد، لا قوة تبلغ قوتك، خلقتَ الأرض كما شئت، والبشرَ قاطبةً، والحيوانات كافة صغيرها وكبيرها، ما يمشي منها على الأرض، وما يحلق بجناحيه في جو السماء، وأعطيت كل سائل مسألته، وأبدعت بفضلك كلّ جميل، ومنه تراك كلُّ الأعين، أنت في قلبي يا إله الكون..." (٩).

ما نقلته هنا دون أن أضيف شيئًا عليه كانت مصر تعده حقيقة كبرى تؤمن بها منذ نحو أربعة آلاف سنة.

أما اليونان فكانت عقيدة الإيمان باليوم الآخر وخلود الروح راسخة عندهم، يذكر الفيلسوف الكبير "فيثاغورث" أن للروح بعد أن تفارق الجسد حياة خاصة، حظيت بها قبل الهبوط إلى الأرض، ولما هبطت حُمِّلت تكاليف معلومة، فإن أساءت طُرحت في جهنم ومزقتها زبانيتها إِرْبًا إِرْبًا، وإن أحسنت فلها الدرجات العلى والحياة الطيبة.

نعم، إذا نظرنا إلى هذه النصوص بعد الاعتراف بما شابها من الخلل الممكن رجوعُه إلى رُواتها، وجدنا عقيدة حشر قد بُحِثت بأسلوب لطيف وهي ليست عن الصواب ببعيد.

ولا يختلف عن هذا ما قاله أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، فهو يرى أنّ الروح إذا فارقت الجسد أعرضت عن الحياة المادية جذريًّا وشَغَلها التمعُّن في الحقيقة ليس إلا، وهكذا ترقى الروح إلى عالم ملائم لها؛ عالم لاهوتي مفعم بالحكمة والخلود، وتتنزه عن نقائص كانت تقتضيها الطبيعة البشرية كالقصور والخطأ والخوف وحتى عوامل الألم في الحياة المادية من حب وعشق... أي من جميع ما تستلزمه الطبيعة البشرية لتحظى بسعادةٍ بالغةٍ وحياةٍ حميمة بصحبة الربانيين.

(٩) أنظر: جيمس هنري برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ص. ٢٤٥-٢٤٨.

وبعد كل ما رأينا إن وجدنا ما يشبه التناسخ في عقائد أمم تتبع مثل تلك المناهج الفكرية، فعلينا أن نجزم أنها نَتاج تحريف مُنيت به تلك العقائد.

ولما غدت عقيدة التناسخ المتجذرة في مصر مدارًا للملاحم والأغاني الشعبية في دول حوض النيل كلها من أقصاها إلى أدناها، اكتست تلك العقيدة حُللًا خيالية مزركشة كسَتْها إياها العقولُ الولود لفلاسفة اليونانيين، فنفذت إلى الأساطير، حتى غدت أسطورة الأرض بأسرها.

ومن أخذ بهذا المفهوم من الهنود يَعدّ المادةَ التجليَ الأخيرَ لـ"براهمان"، وحلولَ الروح في الجسد شرًّا وخسّة؛ ويعتبر الموتَ ترفعًا عن النقائص البشرية، ووسيلةً لبلوغ الحقيقة والرقي إلى الوجد والاستغراق؛ وللهندوسية نصوص عظيمة الأهميّة عندهم بعنوان "فيدانتا"، تصور أن الروح الأعظم "أتمان" والإله "براهمان" شيء واحد، وأن الروح تنتقل من قالب إلى آخر، ولن تنجو من الأسى والألم إلا إن عادت إلى أصلها؛ وإنما تبلغ الروح مرادها -وهو المعرفة المقدسة- بالتطهر من الأنانية ومفاسدها والجري نحو المعبود المطلق جريان النهر إلى البحر؛ فإذا تحقق الوصال عمَّت السكينة والسكون مثلما يحصل في "نيرفانا" البوذية، إلا أن في البوذية نوعًا من الفناء والانطفاء والخمول، مقابل ما في البراهمانية من روح فعَّالة إيجابية.

ثم اعتنق بعض اليهود عقيدة التناسخ، ولما دسّ "الكاباليون" هذه العقيدة في أديرةٍ منها حصن الإسكندرية نفثَ غلاةُ الشيعة تلك العقيدة بين المسلمين وإنْ بقدر ضئيل؛ ومما يلفت النظر أنّ الحلول والاتحاد قاسم مشترك بين الأمم القديمة والحديثة المعتقدة في التناسخ؛ وهذا خطأ عام وقعت فيه أقوام سلكت هذا الطريق المنحرف فذهبت المذهب

نفسه، فالأخناتونية في حق أخناتون، والبراهمانية في براهمان، واليهودية في عُزير عليه السلام، والمسيحية في المسيح عليه السلام، وغلاة الشيعة في سيدنا علي رضي الله عنه؛ أما ما في أقوال بعض المتصوفة مما يوهم التناسخ فهو إما مِن درج المغرضين وإمّا من الرموز التي يجب تأويلها...

أما علماء أهل السنة المحدِّثون منهم والفقهاء والمفسرون والمتكلمون فقد أجمعوا على أن عقيدة التناسخ تناقض حقيقة الإسلام، ومن أسباب إنكارهم لها أن المرء يعيش بقدَره، ويموت بقدره، ويحشر بعمله، ويجيب على السؤال بنفسه، ويحاسَب هو لا غيره على سيئاته وحسناته. نعم، يستحيل قبول هذه العقيدة الفاسدة لأمور:

أولا: مقتضى الإيمان باليوم الآخر أن المرء سيحاسب بحسب منعطفات حياته، ففي أي شخص ستُحشر روحٌ حلّت في آلاف الأجساد؟ وبأية حالة ستُثاب وتُعاقب؟.

ثانيًا: الدنيا دار ابتلاء، والابتلاء فيها قائم على أساس الإيمان بالغيب؛ فعقيدة التناسخ تنقض نفسها بنفسها وتقوض نفسها بنفسها؛ إذ إنها تقضي بأنَّ الروح التي اقترفت الآثام في الدنيا تُعاقَب بحلولها في جسد مخلوق وضيع، وإذا سنحت الفرصة للانتقال إلى جسد آخر فستحاول التخلص من تكرار عملية الحلول لِمَا تجرعتْ من معاناة وآلام، فلم يعد في المسألة شيء له صلة بالإيمان بالغيب أصلًا...

ثالثًا: لو قُضيَ بأن تنتقل الأرواح بين الأجساد مِن هذا إلى ذاك ومنه إلى آخر لينعم كل فرد بالسعادة المطلقة، لترتَّب على ذلك نسبة العبث -حاشا لله- إلى وعد الله ووعيده، بالثواب للصالحين وبالعقاب للظالمين، وهذا باطل ومحال في حق الذات الإلهية...

رابعًا: في القرآن الكريم والكتب السماوية أن غفران الذنوب ممكن، وهذا شأن من وسعت رحمته كل شيء؛ وهذا يعني أن الرحلة الطويلة التي تقطعها الأرواح في ألم ومعاناة طلبًا للعفو والغفران والتطهر من الذنوب لا جدوى منها ولا طائل.

ويبدو أن بوذا رأى "نيرفانا" ذات الفناء والانطفاء أكثرَ أمانًا من تلك الرحلة الشاقة، ودعا من غلب عليه الهمّ من البراهمانية إلى هذا الأفق ذي السكينة والطمأنينة.

أما نحن المسلمين فنعتقد أن الله يغفر الذنوب جميعًا، فالله سبحانه وتعالى يتوب على من تاب، ولا عبرة بكثرة الذنوب وقلتها، ولا للإصرار على الذنب وإن دنا الأجل؛ فَرُبَّ عاصٍ قضى عمره كله في أوحال المعاصي والذنوب تصيبه رحمةُ الله تعالى بساعةٍ قضاها في طاعته سبحانه...

خامسًا: التناسخُ وتلك الرحلةُ الطويلة الشاقة التي تقطعها الروح طلبًا للرقيّ في تداول زمني مستمرٍ أمرٌ يناقض رحمة الله تعالى وإرادته؛ فهو ﷻ لو شاء أن يجعل الأشياء الحقيرة المستقذرة ذهبًا خالصًا وأثمنَ الأشياء لَفعل من ساعته، وهذا من عظيم فضله وإحسانه...

سادسًا: من أتباع الرسل مَن ارتكبوا المعاصي والآثام قبل إسلامهم، وبعد ماضٍ مظلم طويل بلغوا رتبة عالية وبَذُّوا الأولياءَ، وهذه حقيقة قائمة جليَّة؛ نعم، إن الرقي إلى قمة الكمال دفعة واحدة دليلٌ على عظيم فضل الله، وإشارةٌ إلى أن انتقال الأرواح بين الأبدان طلبًا للرقي كلام لا محل له من الإعراب...

سابعًا: التسليم بأن لكل جسد روحًا خاصة من مقتضيات الإيمان بقدرة الله المطلقة على الخلق، أما القول بانتقال طائفة محدودة

مـن الأرواح وإدخالهـا فـي الأجسـاد وإخراجهـا منهـا فإنه إسـناد العجز إلى من هو على كلّ شيء قدير، فعقيدة التناسخ باطلة عقلًا...

ثامنًـا: أليـس ضروريًّا وجود أمارات لدى بضعة ملايين من بين بضعة مليارات نسمة يعيشون على وجه الأرض على الأقل لتبرهن على التجارب الحياتية التي خاضتها أجسـاد انتقلت منها الأرواح؟ فإن لم توجد أمارات فـلا أقلَّ من أن يشـكِّلَ ذهابُ الروح ومجيئها إلى الدنيـا مرارًا ثقافةً عامة متراكمة لدى بعض الناس؟ ولو حدث هذا ولو بنسبة ١/١٠٠٠ من سكان العالم، لَلَقِينا منهم واحدًا أو أكثر أينما ذهبنا، لكن أين هم؟!

تاسعًا: وكان لا بد أن يظهر في مختلف شرائح المجتمع أطفالٌ ذوو مكتسـبات قديمـة ورثوها مـن أرواح قديمة انتقلت إليهـم؛ هل لأحد إلى هذا اليوم أن يذكر واقعة واحدة ثابتة في هذا الأمر؟ فإن شـوهدت أحوال خارقـة مـن بعض الدهاة والملهمين فلا يعدو هذا أن يكون مددًا سـماويًّا أو قـوة حافظـة للأمور مـن نبيهٍ فطِن، وليس هذا من المكتسـبات الناجمة عن تناسخ الأرواح في شيء؛ ولا دليل حتى اليوم على وقوع حادثة تثبت أن جسـدًا يعيش بروح شـخص آخر، اللهم إلا خبرًا مثيرًا أو اثنين تناقلته بعض الصحف ومثله هذيان بعض المجانين...

عاشـرًا: لـم تظهر أيـة أمارة حتـى اليوم تثبـت وجود طبائـع إنسـانية في كائنات حية أخرى؛ ولو سلمنا بوجود روح تحمل خصائص اكتسبتها من أجساد دخلتها من قبل، فإنها مهما بلغت خسّةُ حياتها فلا بدّ أن يكون لهـا انفعالات تكاد تتجاوز حدود طبيعتها؛ ورغم تقدم الدراسـات النباتية إلا أننا لم نجد في النباتات أية أمارة على التناسخ...

وقصـارى القـول أن منشـأ عقيـدة التناسـخ انحـراف عقائـدي لدى الأمـم السـابقة، وأما الإنسـان اليوم فلا أصل للتناسـخ عنـده إلا في مكر

الأرواح الخبيثة وتلبس الشياطين ببعض الأجساد وتحكّمها بها؛ ويدلُّنا قول الصادق المصدوق ﷺ: "**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**"[١٠]، أن الشيطان له سلطان على العقل والقلب، ويُظهر لنا الحديثُ شيئًا من الوجه الحقيقي لذلك الهذيان الذي يُسمَّى التناسخ.

ولا يُعقَل أن يعتقد الإنسان -الذي خلقه الله في أحسن تقويم- بخرافة لا تقوم على تجربة ولا عقل ولا نقل...

والله أعلم بالصواب.

(١٠) صحيح البخاري، الاعتكاف، ١١؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٣.

الصلاة في القطبين

سؤال: الصلوات الخمس فرض، لكن الليل في القطبين يستغرق ستة أشهر والنهار ستة أشهر أخرى، فكيف تُؤدّى الصلاة في تلك المناطق؟

الجواب: لا نعلم نية السائل؛ فهذا السؤال يطرحه غالبًا الملاحدة الذين ينكرون أن الإسلام دين عالمي، أرادوا أن يقولوا: أنتم تسلّمون بأن الإسلام دين عالمي، لكن يا ترى هل يمكن أن تؤدى أركان هذا الدين بما فيها من صلاة وصيام في مناطق يستغرق الليل فيها ستة أشهر والنهار ستة أشهر أخرى؟

أنوه بداية إلى أن الأنظمة كلها عاجزة أن تبلغ ما بلغته عالمية الإسلام؛ فهناك أنظمة الآن تتخللها آلاف العيوب والأعطاب يستحيي الإنسان أن يسمّيها نظامًا، بل منها ما خضع للتعديل والتنقيح مرارًا ومؤسّسه ما زال على قيد الحياة، فمثلًا نظام ماركس الاقتصادي رغم ما أجراه عليه "أنجلس" من تعديل وتنقيح فإنها تعديلات خضعت هي الأخرى أحيانًا للتعديل والتنقيح، وأُلبست في كلّ مرة زِيًّا جديدًا.

واللافت أن شتى أنواع الأنظمة خضعت لهذا الأمر في الأزمنة كافة، بما في ذلك الأنظمة الاقتصادية اليوم؛ وهذا مردُّه إلى نقصٍ بشريّ.

وأضيف أنني لا أقصد بمثل هذه المقارنة العدولَ عن المسألة أو الاستخفاف بها، ولكن الديالكتية الجدلية هي مذهب البعض ومشربه، فنتنزل أحيانًا إلى مستواهم ونسلك معهم أسلوب الأطفال.

ثانيًا: يا ترى كم نسبة من يعيش في تلك المناطق إلى سكان العالم حتى نعرّض دينًا عالَميًّا للنقد من أجل أحوالٍ خاصة عارضة؟ أجل، كم نسبة من يعيش في بلاد الظلمة والجليد إلى عدد الإنسانية؟ ربما لا يصل إلى ١/١,٠٠٠,٠٠٠؛ فإغفال البشرية قاطبة في أنحاء الكرة الأرضية كلها، واتخاذ حالة بضعة أشخاص مناطًا للأحكام الشرعية ومثارًا للشبهات والظنون أمرٌ يخلو مِن الإخلاص والعلم.

ثالثًا: يا ترى هل هناك مسلمون يعيشون في القطبين حتى تشغلنا مسألة صلاتهم ونسأل عن كيفيتها؛ فلو حدث أنِ استوطن مسلمون يومًا في القطبين، وسأل سائل عن العبادات والشعائر صار للسؤال معنًى ومغزًى، وإلا فمثل هذه الأسئلة محاولة لإثارة الشبه والشكوك في قلوب الأبرياء، وما إن يجري الحديث مع الماديين حتَّى يشرع اللسان في جدالهم رغمَ أنَّ القلب لا يستهوي ذلك، فمعذرة!

ولنعرض باختصار لما جاء به الإسلام في هذه المسألة: لا ريب أنَّ الإسلام الذي لم يدع شاردة ولا واردة إلا أحصاها لم يغفل هذه المسألة، وأماط اللثام عنها منذ بداية عصر النبوة في معرض حادثة تتصل بهذا الأمر؛ روى مسلم في صحيحه وأحمد بن حنبل في مسنده أن النبي ﷺ ذكر الدجال وقال: "**إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: "**أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: "**لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**"(١١). نستنتج من ذلك أن الأشهر والأسابيع التي كلها ليل أو نهار تقسم إلى أيام من أربع وعشرين ساعة، وتقدر العبادة فيها بقدرها.

(١١) صحيح مسلم، الفتن، ١١٠؛ المسند لأحمد بن حنبل، ١٧٣/٢٩.

ولما جاء الفقهاء بينوا هذه المسألة في باب مواقيت الصلاة، فغدت معلومة للجميع بما لا يدع مجالًا لأي لبس فيها؛ وسنتطرق إلى ما يخصّ موضوعنا من باب المواقيت:

الأوقات هي أسباب للصلوات، فإنْ عُدم الوقت فلا صلاة، فمثلًا إنْ عدمنا وقت صلاة العشاء في مكان ما لم تجب، وهذا يسري في المناطق التي يخلو اليومُ فيها مِن وقتٍ من أوقات الصلوات؛ أما حينما يستغرق الليل أو النهار جزءًا كبيرًا من السنة كما في حديث الدجال فعلينا أن نقسم هذا اليوم الطويل أو تلك الليلة الطويلة بقدر أيامنا وليالينا المعتادة، ونقدر أوقات العبادة فيها بقدرها ونؤدي صلاتنا، أي نستخدم توقيت أقرب مكان للمنطقة، ونقسم الليل والنهار إلى أجزاء معلومة، ونؤدي عبادات الليل فيما نعتبره ليلًا وعبادات النهار فيما نعتبره نهارًا كما نحدد بشكل طبيعي فطري أوقاتًا معينة للطعام والشراب والنوم. أجل، فكما نخضع لقوانين الفطرة في المناطق التي لا تشرق عليها الشمس أو تغرب عنها شهورًا، فعلينا كذلك أن نحافظ هكذا على أداء عباداتنا من صلاة وصيام بما يناغم الحياة التي نعيشها.

إذًا لم يغفل الإسلام هذه المسألة قطعًا كما لم يغفل سائر المسائل، فأوجب العودة لتوقيت أقرب مكان للقطبين تتبين فيه أوقات الصلوات الخمس.

أخيرًا أقول: وإن كانت الأوقات من أسباب وجوب الصلاة إلا أن السبب الحقيقي للصلاة هو أمر الله؛ فالأحوط في الأماكن التي ينعدم فيها وقت صلاة قضاءُ هذه الصلاة في وقت آخر.

والله أعلم بالصواب.

زواج أبناء آدم عليه السلام

سؤال: لِم حُرِّم زواجُ الأخ بأخته وقد كان حلالًا لأولاد آدم وحواء عليهما السلام؟

الجواب: نشاهد اليوم -مع الأسف- بعضَ البؤر تثير مثل هذه الأسئلة وتُشِيعها بين الشباب بشكل منظم؛ وهؤلاء يتعذر تصديق دعوى حسن النية لديهم؛ وشيء من النظر يكشف ما يستهدفونه بإثارة هذه الأسئلة؛ فلعل من أهمّ أهدافهم بل ربما أولها إيهام التناقض في مبادئ الدين.

وفي خبايا هذه الأسئلة دعايات وشعارات هدامة لبعض أنظمة النفاق، منها مثلًا -حاشا لله-: "لا إله والحياة مادّة، الدين أفيون الشعوب، المقدسات الدينيّة تابوهاتٌ وأدوات استغلال بيد الإمبريالية؛ حدود الحلال والحرام بين أفراد العائلة نقيض ما أثبتته الحقائق العالمية... إلخ". ولما انكشف المستور وراء هذه الدعايات والشعارات الخبيثة برزت جملة من القضايا المفزعة، منها: " لقد وصل الدين إلى يومنا هذا وهو يحمل تناقضات كثيرة، وها هو اليوم يفقد مرجعيته بعد انتصار العقل والمنطق عليه؛ فلا يترددن أحد في فعل ما يهوى ويشتهي ولو أن ينكح محارمه".

تلك هي الخطط القذِرة والأهداف الخبيثة الخفية في خبايا أسئلة تبدو بريئة، ويا له من خِداعٍ وتضليلٍ للسذّج من وراء ستار الوضعية والعقلانية!

أجل، هناك في المجتمع من يستهدف تقويض أركان الدين ومقاصدِه في حفظ الدين والنسل، فيثير أسئلة كهذه؛ ونظرة فاحصة لتربتها التي نبتت فيها تبين أنها من جنس فكرهم المعوج؛ والقاعدة أن الحق

هو نقيض ما يزعمون ويدّعون، إذًا فما نحن عليه هو الحق، هذا الجواب يكفيهم لكننا نريد أن نقول بضع كلمات حول هذا الموضوع:

١- هذه المسألة مسألة دينية أولًا، ومن مسائل الدين الفرعية ثانيًا، والذين لا يؤمنون بالدين وينكرون مبادءه ليس لهم قول شيء في مثل هذه الأمور ألبتة.

٢- لا ريب أن الدين بأوامره ونواهيه مُلزِم لمن يؤمن به؛ فإذا صدر عمّن يجحده ما تهواه نفسُه فليس للمؤمنين أن يتعرضوا له؛ فضلال العمل والسلوك ثمرة لانحراف الفكر والتصور؛ ومن العبث محاولة تقويم ذاك قبل هذا.

٣- هذه المسألة مِن فروع الدِّين لا من أصوله، ومثل هذه المسائل يعتريها تطوُّر مستمرّ يوائِم التكامل البشريّ؛ وما كُلِّفنا به من أمر ونهي أيًّا كانت حكمته مثل ما كُلّف به مَن قبلنا، فالمهم في هذا الخصوص امتثال أمر الآمر؛ نراه أمس ينهى عن نكاح التوأم بعضهما، واليوم يأتي بنهيٍ جديد مناسب لطبيعة العلاقة بين الأب والأم ويقضي بتحريم كذا وكذا؛ ومثل هذا كمثل سَنِّ قوانين لمراحل نمو الطفل في المأكل والمشرب والملبس، بل حتى التحدث بلسانه ومستواه؛ ومثل هذا رُوعي في الحياة الإنسانية المتطورة على الدوام؛ ولا تُعدّ سياسة أمور الطفل وعقليتُه وفهمه عيبًا ولا أمارة جهل، بل أمارة رقي وعلم، وكذا سَنّ قوانين حسب درجة تطور الإنسانية في مراحل تاريخها؛ إذ لا يُنكَر تغيُّرُ الأحكام بتغير الأزمان.

٤- ما ورد في السؤال قد يكون من الإسرائيليات؛ إذ ليس في المصادر المعتمدة ما يُثبت صحته؛ لكننا نضطر لتصديق هذا إذا ما وصلْنَا بسلسلة الخلق إلى آدم وحواء عليهما السلام كما ورد في القرآن؛ فإن سلّمنا بهذه المسألة كما هي دون تحرٍّ لأصلها ففي الإباحة المؤقتة

ثم النسـخ دلالة علـى وجوب رعاية المصالـح، أي إن الأحكام قد تتغير بتغير الأزمان والأوضاع.

٥- هذه المعاملة التي أُبيحت مؤقتة تتميز بحال مخاطبيها، إذ إن عائلة آدم عليه السلام ليست كغيرها ألبتة، لِمَ لا وأنوار الوحي الإلهي لم تنقطع عنها، فظل ضميرها يقِظًا دائمًا.

إن والـدَي هـذه العائلة يتميـزان بطراوة ونضارة الإنسـان الأول على وجـه الأرض، وكان قلبُهمـا وجِلًا على الـدوام لعلمهما أن الزلة الصغيرة قد يكون عقابها شديدًا، وكان قلبُهما منكسرًا لخروجهما من الجنة بسبب الزلـة التـي وقعـت منهما... بيتٌ يحظـى بأبوين مثل هذيـن يلازمه الورع والحيطة حتى في الأمور المباحة، وفي مثل هذه العائلة يعيش المرشحون للـزواج دون أن ينظـر بعضهم إلى بعـض نظرةً خبيثة، بـل ينتظرون الأمر بالـزواج انتظـار الصائـم للفطـر؛ فقـد كان الوحـي ينزل على هـذا البيت كالصاعقة لتقويم ما قد يقـع مِن زيغٍ في القلوب، فلو زالت الحدود كلها فلا أحد يتعدّى أسوار حِمًى يأبى ضميرُه أن يتعدَّاها.

أمـا البيـوت اليوم فلا أثر فيها لشـيء من هذه المعانـي، أي يتعذر أن تظـن بها الوقوف عنـد هذه الحدود، أو رعاية هذه الأمور، ويحتمل وقوع ما لا يليق في الأعمار الصغيرة؛ وهذا ما يجلب العار لأفراد الأسرة طول العمر؛ ويختل أمن هذه البيوت وتفقد الطمأنينة حتى إنها لَتسـتحيل سُـكًّا للعقارب وجحورًا للثعابين.

وهـل يمكـن أن يُظَلّـل الأمـن والاطمئنـان بيتًـا فيه من يميل بشـهوة إلـى إحدى محارمـه؟ إنَّ بيتًا كهذا يغدو حلبة سـباق ليفوز كلّ امرئ بمن يشتهي، بل إنه ليسابق أشقّاءَه في ذلك! وربما بلـغ الأمر أن تُرتَكب جرائم كما وقـع لابني آدم عليه السلام ثم فوضى واضطراب مستمر.

إذًا فالزواجـر وعوامـل يقظة الضمير ورقابته ضروريـة؛ وبانعدام هذه العوامل واضمحلال بيئة التقوى تُفتح الأبواب على مصراعيها لكل أنواع الشر وخبيث الفِعال.

لا أودّ أن أتحدث عما شهِدتُ أو سمعت لئلا أصوِّر الباطل؛ فحوادث المحـارم الناجمـة عـن خطأ وإهمال يسـير تجعل المرء يخجـل من كونه إنسانًا، وإذا ما سمـع عنها تتملّكه قُشَعْرِيرة تسري في بدنه وشعورٌ بالوجل.

وقبل الختام أود الإشـارة إلى نقطة معينة، وهي أنّ عائلة تهتز جدران مسـكنها بقول الله تعالى: ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٣٦) فتغمرها الخشـية والإجلال، ليسـت كغيرها من عوائل اليوم، فمن الطبعي أن أحكامهـا -وإنْ كانـت مؤقتـةً- تختلـف عن أحـكام العوائل الأخرى، فضـلًا عـن أنه تتعـذر معرفة عدد وقوع ذلك النوع مـن الزواج، فلا ندري ربما وقـع مرة أو مرتين.

٦- مـن حِكَـم الـزواج بغير المحارم ضمـان توزيـع الثـروة وتداولها لكـي لا تكـون دُوْلة بين أفراد العوائل، ولكن النـاس يومئذ هم أولاد آدم عليه السلام فحسب، وكانت الدنيا كلها مسخَّرة لهم، فلا سبيل إلى القول بتراكم الثـروة أو احتكارهـا وتمركزها؛ أمـا اليوم فقد اختلفـت البنية الاجتماعية كثيرًا بما جدّ من أواصر؛ لكن هذا ليس علة الأحكام المتعلقة بأمر الزواج، حتـى لو وجدت طرائق أخرى لتوزيـع الثـروة فلن تختلف هذه الأحكام، والقول فيها للعليم الحكيم جل وعلا.

سـؤال آخر يمكـن تبادره إلى بعـض الأذهان: ألم يكـن من الممكن أن يَشرع الله شرعًا آخر غير الزواج بين الإخوة؟

سـؤال كهـذا فيـه سـوء أدب وجهـلٌ بـالله تعالـى؛ وبعـد أن خلق الله تعالـى آدم وحـواء عليهما السلام مـا أهون أن يخلق مثلهما، فهـو تعالى خالق آلاف

بـل مئـات الآلاف من العوالم، ولكنه لم يفعـل لأن حكمته قضت بذلك؛ ثم إنه تعالى لا شـيء يدعوه ليخلق حسـب موازيننـا القاصرة المحدودة، بـل إننـا مـا اسـتطعنا أن ندرك ميـزان الحسـن والقبح في الكـون إلا بعد إمراره من منشـور أوامره ونواهيه؛ ولا يمكننا أن نفسّر الأشياء والحوادث تفسيرًا صحيحًا إلا بعد اتخاذ أوامره ونواهيه ميزانًا، ولن نصيب فيما نضع من مبادئ إلا بعد أن نعدّ كل أمر من أوامره قانونًا.

ولما جعل الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام أصلًا للسُّـلالةِ الإنسـانيَّة، أيقنَّا أنَّ هـذا هو الأحسـن والأحكـم، وكلُّ ما بين بني آدم مـن أواصر يرتبط بهذا الأصل.

كما أن الشجرة كلما اقتربتَ من جذرها وبذرتها تجلت لك وحدتها، كذلك الإنسان، ففي جذر مادّته أو جسده بذرة وحدة الروح، ولو تقدَّمْتَ مرحلـة لظهـر لكَ أنَّ الذرية الإنسـانية كلها مخبوءة فـي جذر "آدم" عليه السلام؛ وتمثـل الشـجرة في هذه المرحلة الذكورةَ والأنوثة معًـا؛ فهي التي تُلقِّح، وهـي التـي تُلقَّـح؛ وعندمـا تباعـدت هذه عن تلـك، برز الاختـلاف بين الذكورة والأنوثة، فتغير شكل التلقيح أيضًا.

إننـا نشـعر بعلاقة بيننا وبين البشـرية جمعاء، ومرجـع هذا هو وحدة آدم وحـواء عليهما السلام وإنسـانيتُنا والمحبـةُ التـي وضعهـا الله تعالـى فـي قلوبنا؛ أما نسخ أحكام كانَت في شرع مَنْ قبلَنا فأمرُهُ إلى حِكمة التشريـع الربانيّ الذي نسـلم به، وأيضًا إلى بُعدنا عن الجذر الذي فيه سـرّ ذاك التشـريـع، وكذلـك الفروق الفردية الخاصة بالماهية الإنسـانية التي تُمنَح لكل امرئ في السلالة البشرية ذكرًا كان أم أنثى.

فسبحان من هو في كل أمره حكيم.

"قَالُوا بَلَى"

سؤال: ما معنى الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٢/٧).

الجواب: في هذه المسألة سؤالان:

١- مَن المسؤول، وكيف طُرح عليه السؤال؟

٢- متى طُرِح هذا السؤال؟

ثمة آراء يمكن عرضها بين يدي السؤال الأول:

١- إن هذا يعني تَلقِّي الإنسانِ أمرَ الله "كُنْ" ولم يكُ شيئًا، وامتثاله لهذا الأمر. فمن هذه الزاوية يُعَدّ هذا الميثاق ميثاقًا تكوينيًّا لأنَّ فيه طلبًا واستجابة.

٢- لما كان الإنسان محض جُزَيْئات في عالم الذرّ وما وراءه ألقى ربّ العالمين -الذي ربّى كل شيء وساقه نحو الكمال- الرغبةَ في هذه الجزيئات أن تكون بشرًا، وأخذ عليها العهد والميثاق بأن تتجشم ما لا تطيقه أية ذرّة منها من حمل أعباء أثقل من جبل قاف، وذلك باستجابتها لطلب الله في الوجود.

يبدو أن ما جرى على هاتين الصورتين من "سؤال وجواب" أو "طلب واستجابة" لم يكن قولًا أو صراحةً، فبعض المفسرين يرى أن هذا الميثاق جرى على سبيل الاستعارة التمثيلية؛ إذ يبدو أن العرض والقبول أو الطلب والاستجابة في هاتين الصورتين لم يكن قولًا أو صراحةً،

ومعنى هذا: كأنّه قيل كذا، وأجيب بكذا، فعُدَّ هذا عقدًا تتوافر فيه القيمة القانونية، وإلا فهو ليس بالعقد الذي يتم بالإقرار والمكاتبة.

الحق أن لله تعالى آلافًا من أنواع الخطاب والجواب، وتفسير المسألة دون اعتبار لهذه الأنواع لا يخلو من التكلف، وسنَعرِض لهذا الأمر في مكانه.

٣- هذا العقد بما فيه من إشهاد وشهادة ما أبرم إلا ليعرف الإنسان نفسه، بل ليدرك أنه هو وليس شيئًا سواه، إنه يعني معرفته لنفسه، وتمثّله حقيقة "**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**"[١٢]، ومشاهدتَه مرآةَ ماهيته، وشهادتَه على الحقائق المتنوعة التي تنعكس على شعوره بهذه الطريقة، ثم إعلانَه كل ما شاهده.

ولكن هذا الإيجاب والقبول أو الطلب والاستجابة أو السماع والإعلام ليس صريحًا ولا مما يتأتى إدراكه بالحس على الفور، ولعلّه مما لا يُدرك إلا بالتنبيه المستمرّ، ومن هذه النقطة تمخضت أهمية تكرار الإرشاد أيضًا.

وإنّما جُعِلَت النفس أو الأنانية المودعة في الإنسان ليعرف بها خالقه ﷻ ويقرّ بوجوده تعالى. حقًّا الغاية من خلق الإنسان ليست شيئًا سوى هذه المعرفة وهذا الإقرار، فوجود الإنسان فيه دلالة على وجود الله، وفي صفاته دلالة على صفات الله، كما يدلّ قصور الإنسان ونقصه على كمال الله، وافتقاره على غنى الله، وعجزه وفقره على قدرة الله وإحسانه سبحانه؛ وتلك هي أولى هبة وإحسان من الله تعالى للإنسان، أما ما تقتضيه هذه الهبة والإحسان فهو معرفته تعالى وإدراكه، وهما يعنيان الإعلان عن الإقرار بالخالق العظيم الذي يشهد الإنسان وجودَه في كل موجود

(١٢) انظر: العجلوني: كشف الخفاء، ٢/٣١٢.

ونُـورَه في كل ضياء، وهذا معنى سـؤال "ألسـتُ بربكـم" وجواب "بلى"، وكأن هـذا العهـد إيجـاب وقبول تجلَّى في إدراك معنى ما سـطرته القدرة والإرادة في ذاك الكتاب العظيم، ودرْكِ ما بين سطور الحوادث من أسرار.

٤- لا ينبغـي أن نفكـر ولا نحكـم على هذا العهد وما فيه من سـؤال وجـواب بمقاييسـنا المادية، فالحق ﷻ يُلقي أوامـره على مخلوقاته كافّة، كلّ حسـب ماهيته، ويسـمع ويجيب ما ينبعث منها من أصوات وأصداء، ويؤتيها سُؤْلها.

وإذا ذهبنـا مذهـب علمـاء الكلام فلنـا أن نقول: كما يسـمع الله قول الناس، الذين يعبّرون عن مراميهم بألسـنة شـتى ولهجات متعددة؛ كذلك يُنزِل عليهم أوامره بألسـنة ولهجات متباينـة، ويبيّن لهم الحقائق ويعرّفهم بماهية الإنسان والكون، ويأخذ عليهم العهد والميثاق بما يدخل من القول والبيـان فـي جملة "الـكلام اللفظي"؛ ولله ﷻ كلام آخر سـوى ذلك، وهو يعـدّ مظهـرًا وتجلّيًا آخر لكلامه النفسـي، يبـدأ بما يُلهمـه الله للحيوانات وينتهي بخطابه للملائكة.

ودائـرة متعلَّقـات هـذا النوع من الكلام واسـعة، مبدؤها مـا يرِد على قلوب البشر من إلهامات، ومنتهاها عالم الملائكة؛ ولا يمكن لدائرةٍ سماعُ وإدراكُ أيِّ كلامٍ أو تبيانٍ أو رسالةٍ تتعلق بدائرة أخرى؛ فكل دائرة تختلف في ماهية "الاستقبال والإرسال" عن غيرها.

ومـن الخطـأ الجسـيم أن ندّعي أن بإمكاننا سـماع كل شـيء، واليوم أدركْنا أننا لا نسـتطيع سـماع سـوى ١/١,٠٠٠,٠٠٠ مـن الأصوات مما يمكـن سـماعه، كما لا نسـتطيع أن نرى إلا هذا القدر ممـا يمكن رؤيته، فلا قدْر ألبتة لِما نسـمعه ونراه إزاء ما لا نسـمعه ولا نراه؛ فيتعذر علينا إذًا

أن نتبين بطاقاتنا المحدودة خطابَ الله للذرات وأوامرَه للأنظمة وتركيباتها وتحليلاتها، لأن هذه كلها تجري في أبعاد أخرى سامية.

إن الله يأخذ في عالم الذر وفي بطون الأمهات وفي مرحلة الطفولة ميثاقه على الذرات والجزيئات والخلايا، لكنا لا نقدر أن نتبين هذا واضحًا بطاقاتنا المحدودة ألبتة، لا سيما إن كان هذا الميثاق بين الله وبين روح الإنسان أو الوجدان الذي هو آلية في الروح.

إن روح الإنسان كائن مستقل، ووضوح هذه المسألة مما لا مراء فيه اليوم، فعِلمُ النفس الغيبي (*Parapsychology*) الذي يحيط بفروعه المتنوعة دنيا العلم كلَّها لفَتَ أنظار الناس إلى الروح بموجوديتها ووظائفها وأحلامها وأمانيّها وآمالها، فما من محفل علمي أو كواليس فكرية إلا وهذه المسألة مثار حديثهم، ولما كنّا قد بحثنا مسألة الروح في موضع آخر مستقلًّا، فسنعرض الآن لما يتعلق بموضوعنا:

إن وجود الروح قبل جسم الإنسان، وماهيتَها غير مقيدة -من ناحية- بحدود الزمن؛ فإن وقع الإيجاب والقبول في الميثاق معها، فلا طاقة لنا باستيعاب هذا الأمر ألبتة، ففهمُنا قاصر وكذا البيان؛ فأسلوب الروح وهي تتحدث ربما يشبه ما يجري في أحلام الإنسان من الخطاب، بل إنّ الروح كما في التخاطر تتواصل وتتفاهم دون حاجة إلى ذبذبات الصوت.

وإنّ مسألة كهذه في وزنها تحظى باهتمام كبير حتى في مجتمع ماديّ كالاتحاد السوفيتي، وهذا أمرٌ ذو مغزًى عميق، فمعناه أنه اعتُرِف بأن للروح لغةً خاصّة في الكلام؛ وسيُسجَّل هذا الكلام ويُحفظ في شرائط غير التي نعرفها، فإذا ما آن الأوان ظهر ذلك بأسلوب خطابٍ خاص ولغة خاصة به، وتجلى بتداعيات خاصة به.

هكذا استُدعيت الأرواح في مقام "ألستُ" ليَعهد إليها الرب الجليل ﷻ، فرأوا كل شيء عِيانًا بَيانًا، لأنه لم يكن حينذاك حائل الجسمانية، رأوا وأبرموا العقد بقولهم "بلى"؛ لكن الذين أغفلوا مبحث الضمير في كتاب الروح -وهم اليوم كثير- لم يقفوا على مثل هذا العقد والميثاق، ولا سبيل لهم للوقوف عليه، إذ إنهم لم يدققوا النظر في هذا العالم ولم يبحثوا فيه؛ والحقّ أن الضمير هو الكتاب الصامت الذي أصغى إليه "بِرجسون (*Bergson*)" مُعرِضًا عن الكون بأسره، واستمع إليه "كانط" وأعرض عن كلّ ما كُتب عن الخالق، فعلى الإنسان أن يستمع للروح ويُصغي إلى إلهاماتها، وينشئ مختبرات لفهم لغة الوجدان؛ ويتحرّى ملامح الحقيقة في فهرست ينعكس في الشعور، هذا الكتاب هو الشاهد على الحقيقة العظمى، وهو أسلم الشواهد من الخطأ، وهو الذي وقّع العقد؛ أمّا مَن حيل بينهم وبين السعي وراء معرفة مثل هذه اللغة فليس يسيرًا شرح هذا لهم.

ولو أن العقول برئت من أحكامها الراسبة لَسمع الإنسان وجدانَه يقول للميثاق الأول "بلى". نعم، إن المقصد الرئيس من البحث والتفكر في الآفاق والأنفس هو: إنقاذ الذهن من هواجسه، وتحرير الفكر، والاجتهاد في قراءة كتابات الوجدان الدقيقة بعدسة الفكر الحر؛ نعم فهناك من عوّدوا أنفسهم على النظر في أعماق القلب بهذا الشكل، وليس ثمة كتاب يمكنهم أن يُلْفُوا فيه ما اكتسبوه بمشاهداتهم القلبية ولطائفهم المعنوية، بل إن إشارات الكتب الإلهية وإيماءاتها لا تنكشف بألوانها الخاصة إلا بهذه العدسة؛ أما من عجزوا عن أن يروا هذا الأفق أو أن يجتازوا حدود نفوسهم فلا قبل لهم بفهم أي شيء منها ألبتة.

والسؤال الثاني في هذه المسألة: متى أُخِذ عليهم ذلك العهد؟

بداية من العسير الاستدلال على هذا بحديث أو آية، ولبعض المفسرين في هذا أقوال يمكن عرض شيء منها:

قيل: وقع هذا والمني يُمنَى في الرحم، وقيل: عند تخلق الجنين بشرًا سويًّا، وقيل: عند بلوغ الطفل سن الرشد والتكليف... ولكل منهم وجهة نظر، ولكن يصعب ترجيح قولٍ على آخر.

وكما يحتمل أن يكون العهد أُخِذ عليهم في عالم الأرواح يحتمل أيضًا أنه كان في عالم آخر اجتمعت فيه الروح بالذرات، وكما يمكن أن يكون في إحدى مراحل الجنين يمكن أيضًا أن يكون في فترة ما إلى أن يبلغ الرشد... كل هذا محتمل، فإن الله سبحانه يخاطب الماضي مع الحاضر ويسمع ما في الماضي مع ما في الحاضر بلا زمن، ونحن ما زلنا نسمع هذا النداء الذي ينبعث من أعماق ضمائرنا، ونستشعر شهادة قلوبنا على هذا العهد.

نعم، إن للمعدة لسانًا خاصًّا تعبّر به عن الجوع، وللجسم عبارات خاصة يترجم بها عن آلامه ومعاناته، وكذلك للضمير لغته الخاصة، فهو يذكّر بالعهود ملتزمًا بمصطلحاته، ويئنّ لما ينزل به من غموم وهموم، ويجتهد ليفي بوعدٍ قطعه على نفسه، ويمضي في انفعالاته بجيشان لا يفتر؛ ويرى أنَّه سعيد محظوظ عندما تجلب أنّاتُه الأنظارَ إليه كما الطفل يفعل، ويتلوى في انكسار على الدوام إذا لم يستطع أن يعبر عن حاله ولم يجد سلوى لآلامه.

إن القلب هو مرآة صقيل تتجلى فيها الحقيقة العظمى، فما أثراه من مكتبة! وما أعظمه من سجلّ! وما أسماه من حافظة! لكن لمن يفهم لغته فحسب...

الشبهة والريبة

سؤال: ما هي الشبهة والريبة؟ وهل هي أمر مخيف حتى يقلق منه بعض الناس؟

الجواب: الشبهة مرض مخيف يدمّر الإنسان دون أن يشعر، ويفضي به إلى التهلكة على تؤدة؛ فإذا ما وقع الإنسان بعقيدته وفكره وتصوراته فريسة لهذا المرض فذلك يعني أن جميع وظائفه الحياتية وملكاته الروحية قاطبة قد مُنيت بالشلل.

ويمكننا أن نقسم الشبهة والريبة إلى قسمين:

١- الشبهة الإرادية، وأطلق عليها القدماء الريبيّة والحسبانية.

٢- الشبهة الناجمة عن اختلال التوازن في الإدراك الداخلي والمشاهدة الخارجية، والانحرافِ في النية والنظر والعجزِ عن تحليل المعلومات.

القسم الثاني من الشبهة قُتِل بحثًا، وأرى أن إزالتها ممكنة، أما الأول فمرض وجنون وانحراف في طبع الإنسان؛ يقول "سبينوزا" لمثل هؤلاء الريبيين: "واجب الريبي الحقيقي هو الصمت والعزلة"؛ فيا ليتهم أنصتوا لهذه النصيحة، ليقتصر أذاهم على أنفسهم ولا يؤذوا الآخرين.

نعم، هناك شبهة مؤقتة تقتضيها البحوث العلمية، وهذا النوع لا يعترض عليه أحد؛ أما الشبهة المرض فهي "المستعصية على الحل أو التي لا سبيل إلى حلها"، كما يقول الدكتور "باول سولبير (*Paul Sollier*)".

وهذا النوع من الشبهة يسيطر على شعورنا باستمرار، ويصيب بالشلل أحوالنا الروحية وفعالياتنا الذهنية كلها. والروح الإنسانية التي آلت إلى تلك الحال غدت مركزًا للتردد والتذبذب الفكري، فأشبهت تلك الطرقَ المعقدة تتقاطع فيها الشبهات عند نقاط معينة، ولا سبيل إلى الخروج منها.

من لم يستطع أن يتخلص من شبهاته ولم يتغلّب عليها، فلا مناص له من العجز البدني والتشوش والانحراف الذهني والسلوكي.

وتفضي الشبهة إلى سلوك فظّ وروح ضيقة خرقاء، فالمرتابون تتملكهم رغبة دائمة في التهرّب من الأعمال البدنية، فيُظهرون حنقهم وكرههم لما يؤدي إلى التعب.

ومهما بلغت قوة تشخيص أطباء علم النفس لهؤلاء الذين ينتابهم التعب والنصب دون القيام بأي عمل فليس بوسعنا أن ننكر تأثير القصور الداخلي عليهم.

وللشبهة تأثير على الذهن، فمن ابتُلِيَ بهذا المرض لا يمكنه القيام بعمل ذهني جادّ دائم؛ ومن اختل عقله بموجات الشبهة مدة طويلة يصعب جدًّا أن يفكِّر بتوازنٍ واعتدال؛ وأبرز ما يعتري هؤلاء حالاتٌ مثل ضعف التركيز وفتور الذهن وضمور الذاكرة، ثم يستحيل كل شيء عندهم إلى أمور مستحيلة، وتنتصب أمامهم قمم من "المُحالات" لا سبيل إلى تجاوزها، فليس أمام هؤلاء إلا باب واحد وسبيل واحد يمكن السير فيه، وهو نقد الآخرين.

والشبهة تقمع الأخلاق، وهذا أخطر ما فيها؛ فما تَعرَّضت له الرغباتُ والطموحات التي هي أعمق عنصر للشخصية مِن تموجات متناقضة واهتزازات يشكِّل في أخلاق المرتابين نفس النتائج التي يشكلها في أذهانهم.

وتظهر علامات الجفوة والعزلة على مَن أصيبوا بتشـوش في أذهانهم وتعرضوا للضيق والفشل في حياتهم العملية، ورغم أن مثل هؤلاء يرغبون بالمتعـة والفـرح والمـرح إلا أنهـم يتهربون مـن الناس جميعًـا ويحبذون العزلـة؛ لـذا لا منجـى لهم من الهـم والحزن؛ وهم محرومـون من الفكر الحر، ومناعتهم المعنوية تكاد تكون معدومة.

وبخاصة مَن قطع مسافة كبيرة في الارتياب تسيطر عليه أحيانًا القسوة والجمـود والخمـول حتى إنه لا يتأثر بأي شـيء، وأحيانًـا أخرى تخرجه شخصيته المعنوية المنهارة عن كونه فردًا من المجتمـع.

الشبهة مرضٌ آثاره الاجتماعية خطيرة جدًّا، فَمَنْ يَرتَبْ من بيئته ومما يجري حوله يرمِ بنفسه في دوامة آلاف من أنواع القلق، وهذا مبعث أذًى له وإزعاج لبيئته. ومِن أخطر ما يقع فيه المبتلَون بالتردد والشبهات ويفضي أحيانًا إلى هلاك قوم كليًّا إصرارُهم على اعتزال وظيفتهم أو تراخيهم عن القيام بمهمتهم في أوانها في موضـع يستدعي قيامهم بها خوفًا من تحمل المسـؤولية؛ خاصةً أنَّ وقوع قادة المهامّ المهمة وقادة السياسة والحروب في التردُّد والشبهات كفيلٌ بهزيمة الجيوش أو الشعوب وزيادة.

نعـم، لا يُتوقـع من المرتابين أن يكونوا مسـتَندًا لغيرهـم؛ لأن الذين وقعـوا فـي الخطـأ مـرة أو أكثر جـراء اتباعهـم لمرتـابٍ سـيقابِلون حتى أشـدَّ تصرفاتـه معقوليةً وبـراءةً بكل شـكٍّ وارتياب؛ لعـدم علمهم بكيفية ما سيصدر عنه.

ومـع هذا فرغم أن معظم المرتابين يميلون إلى الركون والخمول، فما يضطلـع به قلّة منهم من حماس وسعي للتقدم لا يستهان به.

إذًا كلٌّ مـن أفـكار هؤلاء وتصرفاتهـم يفتقر إلى التـوازن والاعتدال؛ ومنهـم مـن تركـوا مناصبهـم وأعمالهـم ووظائفهـم خوفًـا مـن تحمـل

المسـؤولية، ومثل هؤلاء يمكن أن يتسـببوا -والعياذ بـالله- في أن تصاب أمة أو دولة بالشلل في فترة حرجة؛ وكما أن إقدام هؤلاء مغامرة ومجازفة فكذلك حذرهم الناجم عن شكوكهم وأوهامهم خمولٌ وجمود؛ وقد يبدو أن ضعـف الإرادة وراء هـذا الحـال، لكـن الأمر ليس هكـذا ألبتة، بل إن عدم إصدار قرار صائب سريـع والعجزَ عن ترجيح أحد الحلول المتنوعة التي قدَّمتْها لنا ظروفُ الحياة العامة وحوادثُها هما وراء هذا الحال.

والمرتـاب لا يوثـق به لتردده وعجزه عن الترجيـح، وهو أخطر على المجتمـع مـن المقدام غير المتّـزن؛ نعم، توجيه ذلك المقدام أمر شـاق، لكنه على الأقل يعمل ويتحرك؛ أما المرتاب فلا يوثق بحركته ولا بسكونه نظرًا لغرابة تصرفاته إجمالًا، حيث تبدو حركته سكونًا، وسكونُه حركة.

خاصّة إنْ عَدّ ذلك المرتاب التهوّرَ في إقدامه شجاعةً، وتردُّدَه وجبنَه حيطـةً وحـذرًا، فحالتـه النفسـية المَرَضية تلـك تجعله كارثة يدمر نفسـه ومن معه.

وكـم من القادة والإداريين فرّوا من الجبهة في سـاعة الصفر فأحلّوا قومهـم دار البوار بريبهم وشـبههم؛ فليتهم هلكـوا وحدهم بالثغرات التي فتحوهـا! لكن وا أسـفاه كم نجم عـن هؤلاء المرتابيـن البلهاء من كارثة عظيمة وقعت على رؤوس من معهم.

مـن المرتابيـن المعاصرين مـن يعرّفون بأنفسـهم علانيـة، ويظهرون كفرهم جهارًا، ومنهم جبناء يسترون ما في بواطنهم، فتقـع كوارث فظيعة:

"أنا من يساوره الشكُّ في كلِّ شيء

سل من تشاء فجوابه لكَ: "لا علم لي عمّا تسأل"

من يدري فلعل كلَّ شيء وهمٌ يُغرِي

وربما صار الخداع من مقتضى حياة البشرِ
ومن يدري فلعله جميعًا حقّ يَسري
ولا علم لي بزيفٍ ألمّ بمشاعري
ليتني أرى المعدوم موجودًا والموجود معدومًا بلا ذِكْرِ
الشبهة جُرمي، وما عليّ في ذاك من ضيرِ
من يدري فلعل التراب أصلنا في الغابرِ
وإذا به يغدو حمأً مضطرمًا كالجمر
فأي صدفة غادرةٍ قامت بهذا الأمرِ
وأنى لخالق أن يرتكب جرمًا بهذا القدر
فالخالق بالمحيي المميت يُعرف لا بالمدمِّر"[١٣]

يا لَـ"فِكرت" المسكين! لو عرف أن كفره مع ما فيه من التطرف لم يبلغ مبلغ الريبيين اليوم فلربما أحزنه ذلك وأغضبه!. ورغم هذا كأنه وقع له "تناسُخ"، وحلَّ أجسادَ الريبيِّين اليوم، وعاش في أبدانهم بأفكاره المتشائمة المتطايرة المرتابة!

وليس تفنيد ونقد أنواع الريبية وأدلتها موضوعنا، فنحيلكم في ذلك إلى كتب الفلسفة؛ ونؤكد على مسألة مهمة هنا، وهي أننا بحاجة في مستهل كلِّ محاولة إلى إيمانٍ لا يدع مجالًا لاحتمالٍ آخر، وإلى إرادة تنبع من هذا الإيمان، وإلى عزم لا ينطفئ؛ إذ التردد والريبة في واحد منها يفضي إلى ضعف تأثير تأثر الآخرين بل إلى انعدامه منهما.

والإيمان الجازم بالآخرة هو أول شرط وأهم عنصر في تكامل الفرد والمجتمع، واتباع الطريق الذي يقتضيه هذا الإيمان هو أرشد سبيل وأهم

(١٣) من شعر الشاعر التركي "توفيق فِكْرَتْ".

سـلوك؛ فانحراف الإنســان في قناعاته وتصوراته وسلوكياته كارثةٌ وباعثٌ على الفشل.

ورغم هذا فينبغي للشاكّ المرتاب الوقوف عند هذه الأمور:

١- لا بد لأمثال هذا أن يتوجهوا أو يُوجَّهوا إلى أهل المعرفة والخبرة، ليظهر ما إذا كانت شبهتُه مرضًا أم لا، وليُعرَف مداها وقضاياها العالقة بها، هذا ييسر العلاج ويزيل الشبهة.

٢- لا بـد مـن التركيـز علـى الشـبهة وحشـد المعلومـات الغفيـرة التـي تدحضهـا في مجالهـا، إذا كانت في مجال الإيمـان ففيه، وإذا كانت فـي مجـال العبـادات ففيـه، وإذا كانت في مجـال منهجنا الفكـري ففيه.. ويجـب سـوق الأدلـة التـي تفنّـد كلًّا منهـا مـع ملاحظـة العوامـل التي أدّت إليها.

٣- لا بـد مـن تهيئـة المجـال للقاء هـؤلاء المرتابين باسـتمرار بأهل المعرفة ممن اسـتنارت عقولهم وأفكارهم ويتمتعون بحياة قلبية وروحية، ليستفيدوا من أحاديثهم المنعشة.

٤- ومـن المفيد للمرتابين أيضًا مجردُ رؤيتهم الأحوالَ العامة لهؤلاء الذين رسخ إيمانهم واستقامت أفكارهم، فربما تكون رؤية هؤلاء المرضى لهـؤلاء المؤمنيـن الذيـن يـدورون في فلك الإيمـان والعبادة والإحسـان أجدى وأكثر تأثيرًا من آلاف النصائح.

٥- ولا بـد أن نطـوّف بالمرتابيـن فـي أطلس ماضينا الثـريّ اللامـع؛ فـإذا عرّفنـاه بالوجه الناصـع من تاريخنا وعرفناه بسـيرة نبينا ﷺ، فلنصرفه مـا أمكـن عن النقاط المظلمة الأنانية ونوجهه إلـى ماضينا المجيد الزاخر بالنجـوم. ويلاحـظ كثيـرًا علـى عـدد ممـن تعرفوا علـى الوجـه الناصع

من تاريخنا، وشعروا بروحه القوية من خلال ما ذكرناه آنفًا أنهم استبرؤوا من الأفكار الملوثة التي كانت تجثم على أرواحهم، وبدأت قلوبهم تتجدد وتنتعش.

٦- وإذا غدت الشبهة مرضًا، وأصبح لديها قابليةٌ للانتشار، فلا بد من عزل هذا المريض وعرضه على الطبيب، للحيلولة دون انتشار هذيانه داخل المجتمع.

آجال من يموتون في كارثة واحدة

سؤال: أَتَأْتِي آجالُ من يموتون في كارثة كونيَّة واحدة معًا؟

الجواب: الأجل: الوقت الذي كتب الله في الأزل انتهاء الحياة ومسيرتها فيه وفقًا لظروف كل مخلوق وأحوالِه، فما من مخلوق في هذه الدنيا إلا وقد كُتِب أجله ويوم منيته من قبل أن يُولَد.

ومسار الأحداث ومجراها يتعذر معه وضع حدٍّ يفصل البداية عن النهاية، فقدَر كل موجود أشبه بقطرة ماء، مصيرها إلى الأرض عاجلًا أم آجلًا، ثم إلى التربة لتنفذ منها كما النهر إلى بحر من البحار إن عاجلًا أم آجلًا، فقدَر كلّ موجود كما أتى به إلى مسرح العالم سيأتي عليه ليعود كما جاء.

البدايات أمارات النهايات، والحدوث دليل الفناء، ومن لا بداية له لا نهاية له، ومَن ثبت قِدمُه استحال عدمُه.

إن موجودًا عليًّا قديرًا يحكم بوجود كل حادث، ويرسله إلى هذا العالم برسالة، وهو عليه رقيب... فهو خارج عن الحوادث ومجرياتها وتلك البدايات والنهايات جميعها، والأزمنة السابقة واللاحقة والعصور والعهود كلها تحت قَهْرِه وتدبيره.

فمن الخطأ إطلاق لفظ "الطبيعي" على بثِّ هذه المخلوقات وظهورِها ثم رحيلِها واختفائها من مسرح الحياة، وكذا إطلاقه على الآفات وآثارها ومجرياتها؛ وما من شيء يظهر من العدم إلى الوجود من تلقاء نفسه بل إنما يكون ذلك بأمر رباني وإرادة ربانية لأداء رسالةٍ ما.

وما من موجودٍ يظهر إلى الوجود إنسانًا كان أم حيوانًا أم نباتًا أم غير ذلك إلا بقدرةٍ تصرّفه وتهيمن عليه، ثم يختفي هذا الموجود من مسرح الوجود ويتركه لمن بعده إذا ما أدَّى رسالته في عرض صفات خالقه وإشهارها للدلالة عليه.

والحياة والموت في الدنيا ابتلاء وعرض وظهور؛ ووجودُ أيِّ شيءٍ بعد أنْ كان عَدَمًا دليلٌ جليّ وترجمان فصيح على وجود خالقٍ لا تدركه الأبصار؛ وفناءُ ذلك الشيء بانقضاء أجله دليلٌ أيضًا بيّنٌ على أنّ ذلك الخالق الأزلي باقٍ لا يفنى.

أجل، إننا بوجودنا بعد أنْ كنا عَدَمًا دليلٌ على وجود مَن أوجدنا، كما أننا بسمعنا وبصرنا وحواسّنا وعلمنا لَدليل على وجودِ سميع بصيرٍ عليم، وعندما نموت على باقٍ لا يموت ولا يفنى، والخلقُ كلهم يأتي واحدًا تلو آخر ويرحل واحدًا تلو آخر ولا يعود مَن رحل. وهو ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ (سُورَةُ الْمُلْكِ: ٦٧/٢). وما ينبغي للإنسان أن يهتمّ به هو فقهُ معنى الوجود، والفوز في الامتحان في الدنيا، والتهيُّؤ للرحيل.

وبعد هذا المدخل فلنتناول السؤالَ "أتأتي آجالُ من يموتون في كارثة كونيَّة واحدة معًا؟"

أجل، تأتي آجالهم جميعًا مرة واحدة، ولِمَ لا ومالكُ الملك بيده مقاليد كل شيء؟ فهو كما أنشأ وخلقَ كلّ شيء من الذّرات إلى المجرات في طرفة عين، يميت كلّ شيء في لمح البصر، ولا يحول بل يستحيل أن يحول دون هذا اختلافُ مكان هذه الأشياءِ واختلافُ صفاتِها وكيفياتِها.

ولا شيء ألبتةَ يشبه إرادة المهيمن العزيز الجبار المطلقة وإحاطة قدرته بكل شيء، أما الأشياء التي تقرِّب معناهما وكأنها مرآة عاكسة فما

أكثرَهـا، منها مثلًا: الشـمس تتوجه نحوها أنواعٌ مـن الموجودات مختلفة الصفـات، فتمدها الشـمس بالحيـاة دون أدنى مزاحمة، وتصبغها أشـعتها بشـتى الألـوان، ثم تذبل شـيئًا فشـيئًا وتنطفئ وتغـادر مسـرح الحياة بمر الأيـام؛ ومثـل هـذا كلّ ما يُلقَّـح في رحـم الربيـع، ثم ينمو فـي الصيف، ثم يصفرّ في الخريف، والفرق أنّ لكلٍّ منها قَدَرًا يختلف عن الآخر، وأنّ كلًّا منهـا يجـري بعلم وإرادة وتدبير إلهيّ شـامل لا بمشـيئة نفسـه وهواه ﴿**وَعِنْـدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّـةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْـبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/٥٩).

فهل يُعقل أن تُدَبَّر حياة الأشجار والأعشاب والبذور ونموّها ثم موتها بعنايـةٍ وإحـكام، ويُتركَ سـدًى ذاك الـذي كرمه الله تعالى وجعله أشـرف خلقه؟ لا ريب أنّ خالق الكون ومالكه -الذي لا يشـغله شـيء عن شـيء ولا يشـغله سـماع شـيء عن سماع شـيء آخر، ولا رؤيةُ شـيء عن رؤية شـيء آخر- سـيُحكِم تدبير أمر الإنسـان أكرمِ المخلوقات وأشـرفها أيما إحـكام، وسـيُنعم علـى كل فرد منه بما أنعم به علـى الجنس أو النوع مما دونه من المخلوقات؛ وسيخصّ بذلك الإنسانَ فهرسَ الكائنات، ويكرمه، ويشرّفه بدعوة خاصة إلى حضرته.

قـد يُدعـى المـرء للقاء الله وهـو على فراشـه أو هو في سـاحة القتال أو إِثر آفة ومصيبة؛ وقد يُدعى الناس في أماكن مختلفة جماعات أو فرادى، ولا أثـر لهـذا الأمر على تدبير الخالق لأمر الإنسـان؛ نعـم، لمالك الملك والقـدرة المطلقة مَـن بيده مقاليدُ كلّ حيّ وكَتْبُ الآجال أن يتوفى الأنفس -كما كتب عنده- جماعاتٍ أو فرادى معًا؛ وهذا كتسـريح وحدة عسـكرية سبق أن تعين وقت تسريحها، فإذا جاء أوان التسريح قام أكبر قائد بالتنفيذ.

وسبق في بحث الملائكة الموكلة بقبض الأرواح أنَّ وظيفتها شاملة وعددها كبير، حتى إنه قد يوكَّل عدد منهم لا واحد فحسب بكل من أتاه أجله في الآفات والحروب، وهم إنما يَصدرون في هذا عن مشيئة الله وتقديره، وبأيديهم كتبٌ تهديهم إلى كل من جاء أجله.

وسبرُ هذه الآفات بعمق يكشف أن ما حدث كان مؤقتًا بقدَر أزليّ معلومٍ جَاءَ أجلُ القتلى على وَفْقِهِ، وتدوينُ عجائب هذه الحوادث لا تتسعٍ له مجلدات، بل ما كُتب منها بلغ مجلدات عدة، فما من يومٍ إلا ونقرأ في المطبوعات عن مثل هذه الحوادث المذهلة؛ فمثلًا:

• إذا زلزلت مدينة زلزالًا شديدًا فصار عاليها سافلها ومات الآلاف، قد نرى أطفالًا لا حول لهم ولا قوة لم يمسسهم سوء رغم مرور أيام على الزلزال وهم تحت الأنقاض كأنهم في استراحة...

• وإذا سقطت شاحنة في قناة فغرق العمال جميعًا قد تجد طفلًا رضيعًا في قُماطٍ يطفو فوق الماء...

• وإذا سقطت طائرة واحترق جميع ركابها ولم ينجُ منهم أحدٌ أيًّا كان، قد ترى على بعد مائتي متر رضيعًا ألقته الطائرة لما اصطدمت بالأرض، لكنه نجا ولم يصبه أي ضرر...

إن مئات الحوادث لتبرهن أن الحياة والموت بمشيئة الواحد الأحد وإرادته، لا يقع شيء منهما بنفسه أو صدفة.

والموجودات إنما خُلقت -فرادى وجماعات- لوظيفة مكتوبة في سجل كلٍّ منها؛ وتلك الوظيفة هي أن تفقه أسرار الفطرةِ الدقيقة ولما وراء الطبيعة من أسرار، وأن تكون ترجمانًا ومرآة تتجلى فيها آثار أسماء مَن خلقها وأسكنها هذه الدار، ثم ينقضي أجل كلٍّ بتمامِ وظيفتِه، فيغادرونها فرادى أو جماعات.

هذا العِلم والتقدير والقضاء، أي القضاء بآجال الناس معًا يسير على من يحيط علمه بكل شيء من أوله إلى منتهاه، وقد علّمَنا العليمُ المحيط بكل شيء أنه يحيط بكل إنسان كثيرٌ من الملائكة، وأن لقبض الأرواح ملائكة كثيرين أيضًا.

قد يقال: في النكبات والآفات يموت ويهلك مع من حقَّ عليهم العذاب كثيرٌ من الأبرياء، فماذا عن هؤلاء؟

إنّ سؤالًا كهذا مصدره خطأ وفساد في العقيدة والتصور؛ فلو أنّ الحياة هي هذه الدنيا فحسب، أو لو أن هذه الدنيا هي الدار الأولى والآخرة لربما كان لهذا الاعتراض وجه؛ أَمَا وإنها ليست إلا مَزْرعةً وساحة جهاد ومحطة انتظار، والآخرةُ دارُ حصاد وجنيُ ثمار وشروقُ سعادةٍ وغروبُ شقاءٍ ليس إلّا؛ إذًا لا عجب في موت الصالح مع الطالح، والبريء مع المجرم؛ بل إن جريان الأمور على هذا السنن هو الأصل والمنطق؛ لأن الإنسان عندما يُبعَث ينشأ خلقًا آخر أشبه بأعماله ونياته، وهذا أصل في الحساب، ثم إمّا أن يُعذَّب وإما أن يكون أهلًا للرِّضا والألطاف.

إذًا الأجل أو الموت: الوقت الذي تنتهي فيه الوظيفة في هذه الدنيا، وهذا الوقت قدَرٌ مكتوب في الأزل كأنه خطة مرسومة سابقًا ومدوَّنة في السجل تدوينًا لا ينافي الإرادة الإنسانية؛ ولا فرق ألبتة في تنفيذ هذه الخطة على الخلق أفرادًا كانوا أم جماعات؛ فإذا آن الأوان نفذ أمرُ مَن يرى ويعلم كلّ شيءٍ وفق مشيئته وإرادته سبحانه.

ومن أهم أسباب الانحراف في كثير من المسائل الجهلُ بالعلم والإرادة المطلقة للخالق ﷻ، والخطأُ في رؤية الحوادث والأشياء، فما لم تبرأ عقولنا وتطهر قلوبنا عند مواجهة الأشياء والأحداث من المفاهيم الخاطئة في الطبيعة والصدفة، فستغدو عقولنا وقلوبنا مستنقعًا آسنًا للعقائد الفاسدة وساحةَ حرب للوساوس الشيطانية.

ليس عجبًا أمرُ فسادِ الأجيال وانحرافها، بل المدهش أن تحافظ حتى الآن على استقامتها رغم جدب عالم القلب وسوء تغذيته وتوالي كؤوس الشـبهات عليه صباح مسـاء، وتلك نكبة ومأسـاة كبيرة تقوم بها منظمات متخصصة.

وقـد يُسـتعظم مـا سـقناه مـن أدلة على مسـائل كهـذه، فنقـول: إنها من مسـائل الإيمان، وأصغر مسـألة إيمانية هي في نظرنا كالجبال الشـمّ، وتربو قيمتها على هذه الدنيا بما فيها، فالعناية ببحث هذه المسائل مطابق لمقتضى الحال.

ويقيننـا أن إخواننـا الذيـن يقـدرون هذه المسـائل قدرها سـيعذروننا ولن يسأموا منّا.

مـادة الأثـير

سؤال: هل وجود "الأثير" حقيقة؟ إن كان موجودًا فما هو؟

الجواب: وجود الأثير ليس قطعيًّا، ولكن ذكر بعض أهل العلم الأجلاء له ولو في التمثيل يدفعنا إلى الحديث عنه بحذر.

الأثيـر مـادة لطيفـة، تنفـذ إلـى كل مـكان، تطـرق إليهـا "هويكنـز (*Huygens*)" فـي شـك منـذ عصـور، ولما أكّـد "مكسـويل (*Maxwell*)" وجـود الأثير اندثـرت نظرية الفراغ المطلق، قال مكسـويل: لما تم إثبات الظاهـرة الكهرومغناطيسـية كان لا بـد مـن وجود وسـط كالأثير؛ أي كل شـيء مـن العالـم الكبيـر (الكون) إلـى العالـم الصغير (الـذرة) لا يخرج عـن الأثيـر، والنتيجـة الأولى لهذا الاكتشـاف هي أن الموجـات الضوئية ليسـت إلّا موجات كهرومغناطيسـية، أي ظاهرة الضوء ليسـت إلا ظاهرة كهرومغناطيسية، وكان هذا الاكتشاف يعد خطوة أولى نحو توحيد الظواهر الطبيعية.

وسَبَقَ "فراداي (*Faraday*)" "مكسويل" بأن الشحنات الكهرومغناطيسية لا تسـتطيـع الحركة والانتقال في الفراغ، وأنها بحاجة إلى وسط يحملها، وأفـادت القوانيـن التي اكتشـفها بأن هذه الشـحنات مَوجـات عرْضية لها نفـس خـواص الضوء من حيث الانعكاس والتكسـر والتكسـر المزدوج؛ وادعـى "مكسـويل" أن الضوء موجات كهرومغناطيسـية قصيـرة نوعًا ما؛ ثـم جاء "هرتـز (*Hertz*)" فأجرى تجارب كثيرة أيدت نظرية "مكسـويل"؛ إذ لاحـظ أن سـريان تيـار كهربائـي فـي أي زاوية مـن الغرفـة تنبعث منه شـرارات كهربائيـة فـي الـدورة الكهربائيـة بالزاوية الأخـرى دون وجود

أي ارتباط بينهما، وأن سرعة هذه الموجات تساوي سرعة الضوء؛ فأُطلق اسم "هرتز" على هذه الموجات، وهذا أصل اكتشاف المذياع واللاسلكي والهاتف الذي بأيدينا.

سادت فكرة الأثير مدّة طويلة، ثم أراد "مورلي (*Morley*)" و"مايكلسون (*Michelson*)" التحقق من وجوده بالتجربة، فقالا: لدينا جهاز يمكنه فصل شعاع ضوئي آت من مصدر واحد، ثم يوجهه باتجاهين متعامدين على أن يكون أحدهما موازيًا لمحور دوران الأرض حول الشمس والآخر متعامدًا معه، وسنراقب ونشاهد ما ينعكس على المرايا من هذين الشعاعين، ويُفترَض أن أحد الشعاعين سيستفيد بقدر ما من حركة الأرض فيصير أسرع، أما الثاني فهو متعامد مع حركة الأرض، فيُفترَض أن سرعته لن تتغير، ولكن هذا الفرض لم يثبُتْ؛ إذ لم يسجل أي فرقٍ بين سرعة الشعاعين؛ ثم أعيدت التجربة والنتيجة هي هي، فكان هذا مؤشرًا سلبيًّا على وجود الأثير، أي إنّ الموجات الصوتية لا تحتاج إلى وسط يحملها.

اعتُرِض على هذه النتيجة، فقال "لورنتز (*Lorentz*)": القاعدة أن الأطوال تقصر "في اتجاه الحركة"، وهذا ما حدث في تجربة "مورلي" و"مايكلسون"، وبرهن على وصول الشعاعين إلى المركز أو إلى عين المشاهد في اللحظة نفسها رياضيًّا؛ وقد عُدّ هذا اعتراضًا وجيهًا آنذاك؛ ولكن من المهم معرفة ماهية ما يسعى "مايكلسون" لإثبات وجوده، وما هو "الأثير" الذي يقول "لورنتز" بوجوده.

فالأول قال بعدم وجوده استنادًا إلى تجربته، لأنه افترض أن الأثير مادة كثيفة، أو عدَّه كالهواء المحيط بالكرة الأرضية، وتخيَّل حركة هذه المادة السيالة المحيطة بالأرض مع حركة الأرض، أي أجرى تجربته في مثل هذا الأثير الخيالي؛ ألا يمكن أن يكون للأثير وجودٌ فوق المادة أي عالم

غير مشـهود يقابل عالمنا المشـهود هذا؟ هذا علمًا بأن كثيرًا من المجلات العلمية نَشرت وتنشر الآن مقالات كثيرة حول العودة إلى "الأثير".

إذًا رغم أن الأثير لم يُثبَت وجودُه حتى الآن بالمشـاهدة أو بالتجربة، لكن من الخطأ الاسـتعجال بنفي وجـوده؛ لأننا لا نملك معلومات قاطعة على النفي.

وإن كانت الدراسات الحديثة في الفيزياء ترمز إلى وجود الأثير لكننا على قناعة بأن مثل هذا النزاع سيظل سنين إلى أن يُتفق على المصطلحات الفنية.

وأخيـرًا أذكّركـم بقـول الصادق المصـدوق ﷺ: "**كَانَ فِي عَمَـاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَخَلَقَ عَرْشَــهُ عَلَى المَــاءِ**"[١٤]، ولندع الفيزيائيين ليُدلوا فيه بدلوهم في المستقبل.

(١٤) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ١١.

الفرق بين لفظ الجلالة "اللّه" وكلمة "إله"

سؤال: ما الفرق بين إطلاق كلمة "إله" وإطلاق لفظ الجلالة: "الله"؟

الجواب: إن كلمة "الإله" معناها في الأصل "المعبود"، وتُقابَل بكلمة "*God*" في الإنجليزية، وكلمة "*Tanri*" في التركية وكلمة "*Dieu*" في الفرنسية، وكلمة "خُدا" في الفارسية؛ لكنها ليست ألبتة مرادفة لكلمة "الله" الجامعة لأسماء الله الحسنى كلها، فعند ذكر كلمة "الله" يسبق إلى الذهن الذات الأجلّ الأعلى الذي له جميع الأسماء الحسنى المتجلية في الكون، فهذا هو المعنى المفهوم لكلمة "الله"، أي هو وحده المعبود المطلق، الخالق المطلق، المُجيب المطلق، الرزاق المطلق، البارئ المطلق، الجميل المطلق... إلخ.

وهذا المعنى العامّ هو الذي يُفهم من لفظ "الله" الجامع المشتمل على أسماء الله الحسنى، فهو اسم خاصّ بالله جلَّ جلاله، فعندما يُذكر "الله" نفهم منه أن المقصود هو المعبود المطلق واجب الوجود؛ ولكن إذ ذكرت كلمة "إله" سبَق اسم "زيوس (*Zeus*)" إلى ذهن اليوناني القديم وعجل"آبيس (*Apis*)" إلى ذهن المصري القديم... إلخ؛ إذًا هنا يسبق إلى الأذهان آلهة معبودة بحق وبغير حق، أمَّا عند ذكر لفظ "الله" الاسم الخاصّ بالله تعالى فلا يسبق إلى الذهن سوى الذات الإلهية واجب الوجود من له الأسماء الحسنى، فإن استعمل أحدهم لفظ "إله" بدلًا من لفظ "الله" فقد أخطأ وخانه التعبير الصحيح عن قصده وغايته؛ نعم، يجوز استعمال لفظ "إله" مقابل "خُدا" أو "*Dieu*" أو "*God*" لا في مقابل لفظ "الله"؛

ولما كان لفظ الجلالة "الله" اسـما خاصًّا بالذات الإلهية قلنا في الشـهادة: لا إلـه إلا الله، ولـم نقـل "لا اَلله إلا الله"؛ فشـهادتنا نفـي لجميـع الآلهـة، ثم إثبات الألوهية لله تعالى المعبود المطلق وحده.

عدد الأنبياء

سؤال: كم عدد الأنبياء؟ وهل كانوا جميعًا من الرجال؟ ولماذا؟

الجـواب: بُعِث الأنبياء في أرجاء الأرض كافّة، لكن لا نعرف عددهم يقينًا، ففي رواية أنهم ١٢٤ ألفًا[١٥]، وقيل: ٢٢٤ ألفًا، لكن إسناده واهٍ، فالمهم أنه ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ (سُورَةُ فَاطِرٍ: ٢٤/٣٥).

لم تُخَصَّ منطقة أو مجتمع بالأنبياء بل بُعثوا في مختلف البلدان والأقطار؛ ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾؛ وهذا نصّ قاطع في ذلك، وهو يدلّ على أنّ كلّ مجتمع في الأرض ظهر فيه نبي؛ ويقول الله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٥/١٧)؛ أي إن الله تعالى لا يحاسب ولا يعذب أمة لم يبعث فيها رسولًا، فذاك خلاف رحمته الواسعة؛ وآية ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ: ٩٩/٧-٨) دليلٌ على أنه لا عمل بلا جزاء خيرًا كان أم شرًّا، ومن لم يُبعث فيهم نبيّ لا يمكنهم التمييز بين الخير والشر؛ فلا يمكن حسابهم وعقابهم، ومعلومٌ أن الله تعالى سيحاسب الناس جميعًا على ما قدّموا من خير أو شرّ؛ إذًا لا بدّ أنّهم جميعًا قد بُعث فيهم أنبياء، وبيّن الله تعالى هذا فقال: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾.

هذه الأسس الثلاثة سلسلة منطقية مترابطة، وسأحاول أن أعرض عليكم الآن القضية الأساسية:

(١٥) المسند لأحمد بن حنبل، ٦١٩/٣٦؛ صحيح ابن حبان، ٧٧/٢؛ المستدرك للحاكم، ٦٥٢/٢.

أرسـل الله تعالى الأنبيـاء إلى أنحاء الأرض كافّة فـي مختلف العهود والأزمان؛ فدعوى أن الأنبياء ظهروا في شبه الجزيرة العربية فقط تدحضها نصوص القرآن الكريم؛ نعم، لا نعرف يقينًا عدد الأنبياء في شـبه الجزيرة العربية ولا في أي قطر آخر؛ وسـواء أكان عدد الأنبياء ١٢٤ ألفًا أم ٢٢٤ ألفًـا فلا نعرف سـوى ٢٨، فضلًا عن أن ثلاثة منهـم لا ندري أكانوا أنبياء أم لا.

أجـل، فغايـة ما يمكننا القول هو: إن القـرآن الكريم ذكَر ٢٨ نبيًّا فقط منـذ آدم عليه السلام حتـى نبيّنا محمد ﷺ، وغالبهم لم يُعـرَف أين ظهروا؛ فمثلًا يقـال: قبـر آدم عليه السلام فـي مدينة "جـدة"، ولكن ما مدى صحة هـذا القول؟ فالروايـات عـن لقاء آدم عليه السلام بأمّنا حواء في جـدة لم تبلـغ درجة الصحة؛ فلا نعرف أين بدأ آدم عليه السلام حياته وبلّـغ رسالته.

قـد نعـرف أكثر عـن سـيدنا إبراهيـم عليه السلام؛ إذ جـاب بابـل وما حول الأناضول ثم ذهب إلى الشـأم؛ ونظن أنّ النبي لوطًا عليه السلام بلّـغ رسـالته بين عـاد وثمـود حول بحيـرة لوط "البحـر الميّت"، وأن شـعَيبًا عليه السلام بُعِث في مدينة "مدْيَن" وموسـى عليه السلام في مصر، ويحيى عليه السلام وزكريا عليه السلام في منطقة البحـر الأبيض المتوسّـط، ثـم الأناضول على احتمال؛ فآثار عيسـى عليه السلام وأمـه مريـم عليها السلام في "أَفَس" تشـير إلى هذا؛ ولكنها جميعًا ليسـت بروايات قطعية الثبوت.

ولا نعـرف شـيئا عـن الأمكنـة التـي نشـأ فيهـا الأنبيـاء عـدا الثمانية والعشرين، فلا معلومات يُوثَق بها في هذا، لا سيما أن آثار تلك الشرائع اندثـرت ومُحيـت معها آثار النبوة، فمن العسـير -والحال كذلك- القطعُ بأنّ نبيًّا قد أرسل أو لم يرسل.

إذا تناولنـا النصرانية مثـلًا نرى أنها انحرفت بمـرور الزمن، فناقضَتْ مفهومهـا الأول؛ إذ أُهملـت عقيدة التوحيد وحلّت محلها عقيدةُ "الأقانيم الثلاثـة"؛ فمُنيـت النصرانيـة بأكبـر خيانة على يـد بعض أتباعهـا، فحرّفوا الكتـاب الـذي جاء به المسـيح ﷺ مـن عند الله، وكان الكتابُ سـماويًا، فأصبح بشَـريًا، وجـاء بالتوحيد فاتُّخذ مصدرًا للتثليـث، فمنهم من ادعى أن المسيح هو ابن الله -حاشا لله- وأنَّ أمَّه الصديقة مريم جزءٌ من حقيقة الألوهيـة؛ وضـلّ آخـرون أفظع أنـواع الضلال بقولهم: تجسّـد الله وحلّ في الأجسام.

فـأيّ فـرق يُذكَر بين هذه النصرانية الوثنية وبيـن عقيدة اليونان الوثنية وآلهتها من أمثال "زيوس" و"أفروديت (*Aphrodite*)"؟ فمن حرفوا كتابهم ألهوا عظماء دينهم مثلما اتخذ اليونان عظماءهم آلهة، فأشركوا.

هكـذا بـدأت جميـع الانحرافات فـي تاريخ البشـرية، ثم اسـتمرت وانتشـرت، ولـو لـم ينص القـرآن الكريم أن عيسـى ﷺ نبـي كريم وأن أمـه صديقـة فسـننظر إلى عيسـى وأمـه ﷺ نظـرة اليونانيين إلـى "زيوس" و"أفروديت".

شـرائع كثيرة شُوّهت وحرِّفت على يد البشر، فمحي الوجه السماوي منهـا واندثر، فيكاد يكون مـن المتعذر أن نعرف هل بُعث نبي في مجتمع أو منطقـة أو قطـر مـا أم لا؟ فمَـن يـدري فقد يكـون "كونفوشـيوس" نبيًا، ولا نقطــع بهـذا بل هو احتمال، وليس في تاريخ الأديان ما يشـفي الغليل فـي هـذا؛ فالمعلومات في هذا الشـأن مبتـورة مبعثرة؛ ولكـن التاريخ ذكر "كونفوشيوس" و"بوذا" وأنهما جاءا بِدينيْن ولهما أتباع كُثُر، ونعلم أن فيهما شـذوذًا وأخطاء فادحة، فما أبعدهما بوضعهما الحالي عن الفطرة السليمة

وعن السنن الربانية؛ فمن عبادة للبقر وإحراق النفس إلى صيام يصل ستة أشهر مع الانزواء في المغارات؛ فلا يمكننا قبولهما بوصفهما دينًا.

ولكن ربما انبعثا في السابق من منبعٍ حقّ، ثم أصابهما ما أصاب الأديان الأخرى المحرَّفة من تحريف وتبديلٍ وتغيير، فصارَا نظامًا بشريًّا بصبغة دينية.

لو لم يحافظ المسلمون على منابع دينهم بكل دقة واهتمام لحلَّ بالدين الإسلامي ما حلّ بغيره؛ ولا نستطيع أن ننفي وجود محاولات من هذا القبيل في الماضي والحاضر، فهناك مسلمون غافلون وهناك ذوو أغراض يحاولون القيام بالشيء نفسه بتأويلات مصطنعة؛ فمثلًا من المسلمين من يعتقد أنه يطبق الإسلام كما يجب رغم معاقرته الخمر واستمرائه الزنا، فهذا مثال على الهدم الفعلي للدين، وقس على ذلك السرقة والقمار والربا.

لا نستطيع أن نقول: كان "كونفوشيوس" نبيًّا، فإسناد النبوة إلى غير نبي كفر كإنكار نبوة نبي، وما قلناه عن "كونفوشيوس" وبلده يُقال في أوروبا أيضًا، ولكننا لا نعلم شيئًا، فلا نؤكِّد ذلك.

قالوا كثيرًا عن "سقراط"، ولكن لم تنقل سيرته كلها إلينا، فهل كان فَيلسوفًا تأثر باليهودية، أم أنّ له فكرًا آخر؟ لا نعلم شيئًا يقينيًّا؛ فبعض المفكرين يراه فيلسوفًا متأثرًا بالفكر اليهودي؛ ولكن الوثائق التاريخية لا تعزز مثل هذا الرأي، ذكر "أفلاطون" أن "سقراط" قال عن نفسه:

"تتراءى لعيني أشياء -قد تكون خيالًا- توحي إليّ بأمور فيها هدًى للناس، ومنذ صباي علمتُ بأنني مكلّف بهداية الإنسانية وتعريفها بالله"؛ فلو أنّ كلامه حقّ لأمكن عدُّه نبيًّا للمجتمع الأوروبي الأقرب إلى الفكر

والفلسفة؛ وأذكّر بأنني لا أقول بنبوة سقراط، فلو لم يكن نبيًّا لكان القول بنبوته كفرًا، بل أقول: من المحتمل أنه كان نبيًّا.

إننا لا نعرف أين بُعث الأنبياء سوى أربعة منهم؛ وأُخبرْنا أنه ما من أمة إلا بُعث فيها واحد من هؤلاء الأنبياء، وبناءً على هذا سنشير إلى أمارات دالة على ظهور الأنبياء في أنحاء العالم كلها وإن كنّا لا نعرف عددهم يقينًا ولا أين ظهروا:

الأمارة الأولى: ذكر لي عادل زينل ابن كركوك العراق وأستاذ الرياضيات بجامعة الرياض، قال: "في دراستي العليا بأمريكا اختلطت بالزنوج والهنود الحمر، فتفاجأت بما في الشعائر الدينية لهذه القبائل من أسس تطابق عقيدتنا؛ فمثلًا يقولون: "الله لا شريك له، فلو كان هناك إلهان لفسد الكون"؛ وهذا يطابق الآية الكريمة: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٢٢).

فهؤلاء الزنوج لو لم يهمس إليهم نبيٌّ بهذه الحقيقة لَما قدروا على التوصّل إليها بأنفسهم؛ وكانوا يقولون: "إن الله لم يلد ولم يولد"؛ وهذا مؤشر على ذهن قد نُوِّر؛ فالولادة من خصائص المخلوقات، ومصدرها الحاجة، والله تعالى منزَّه عنها؛ فأنى لهم إدراك هذا لو لم يأتهم نبي يعلّمهم ذلك؟ فيستحيل وجود مثل هذه العقائد الإلهية الراسخة العميقة إلا في أمم متحضرة متعلمة لا في قبائل بدائية ما تزال ترقص حول النيران، أو تذبح الشيوخ والمعمَّرين وتأكل لحومهم؛ فالاحتمال الوحيد هو أن نبيًّا بلغهم بهذه الحقائق، فأُشربتها أرواحهم.

الأمارة الثانية: يقول المفكر الدكتور المصري مصطفى محمود:

"إن القراءة المتأملة لأديان الزنوج البدائيين تدل على أنه كان لهم رسل ورسالات سماوية مثل رسالاتنا.

فـي قبيلـة "الماو مـاو" مثـلًا نقرأ أنهـم يؤمنون بإله يســمونه "موجايـى" ويصفونـه بأنـه واحد أحد لـم يلد ولم يولـد وليس له كفـو ولا شـبيه... وأنه لا يرى ولا يعرف إلا من آثـاره وأفعاله... وأنـه خالـق رازق وهّـاب رحيم يشـفي المريض وينجـد المأزوم وينزل المطر ويسـمع الدعاء ويصفونه بـأن البرق خنجره والرعد وقـع خطاه.

أليـس هـذا "موجايى" هو إلهنا بعينـه... ومن أين جاءهم هذا العلم إلا أن يكون في تاريخهم رسـول ومبلـغ جاء به... ثم تقادم عليه العهد كالمعتاد فدخلت الخرافات والشعوذات فشوهت هذا النقاء الديني.

وفـي قبيلـة "نيام نيـام" نقرأ أنهـم يؤمنون بإله واحد يســمونه "مبولـي" ويقولـون أن كل شـيء في الغابة يتحرك بـإرادة "مبولي" وأنه يسـلط الصواعق على الأشـرار من البشـر... ويكافئ الأخيار بالرزق والبركة والأمان.

وفـي قبيلـة "الشـيلوك" يؤمنـون بإلـه واحد يسـمونه "جوك" ويصفونـه بأنه خفي وظاهر.. وأنه في السـماء وفي كل مكان وأنه خالق كل شيء.

وفـي قبيلة "الدنكا" يؤمنون بإله واحد يسـمونه "نيالاك" وهي كلمة ترجمتها الحرفية... الذي في السماء... أو الأعلى.

مـاذا نسـمي هـذه العقائـد إلا أنهـا الإسـلام، ومـاذا تكـون إلا رسـالات كان لهـا فـي تاريخ هـؤلاء الأقوام رسـل، إن الدين لواحد"[١٦].

فلـو لـم يأتهم نبيّ يبلغهـم هذه العقائد لاسـتحال عليهم أن يعرفوها بأنفسـهم؛ فالأنبيـاء هم من قاموا بالتبليـغ والنشـر لهذه العقيـدة المتوارثة بينهم حتى عصرنا هذا.

(١٦) مصطفى محمود، حوار مع صديقي الملحد، ص. ١٦-١٧.

ويشير القرآن الكريم والواقع والحقائق التاريخية إلى أنه ما من بلد إلا بعث فيها نبي، وإن لم نعلم عددهم يقينًا.

وهل كان من الأنبياء نساء؟ أهل السنة والجماعة وجمهور المحدّثين يقولون: المرأة لا تكون نبيًّا؛ والروايات الواردة بنبوة مريم وآسية عليهما السلام متروكة واهية، والخلاصة أنه لا قطع بظهور أنبياء من النساء؛ لكن عدم إرسال نبية لا يعد نقيصة للنساء؛ فالله تعالى خلق الأشياء كلها على أساس الموجب (+) والسالب (−)؛ فالأشياء المتشابهة تتنافر، ولولا وجود قوة عازلة في أجزاء الذرة تمسكها لتنافرت الأجزاء المتشابهة وتفككت النواة؛ وهذا القانون مطرد في كل الأضداد السالبة والموجبة من أجزاء الذرة إلى المجرات؛ أما الإنسان المكوَّن من ذرات فهو عنصر توازن بين العالم الصغير (عالم الذرات) وبين العالم الكبير (الأجرام السماوية)، وهو سيد عالمنا هذا، وتجري عليه القوانين نفسها، أي يجب أن يكون فيه زوجان مختلفان لكي يتم التجاذب بينهما، فالضعف والحنان من أحدهما والقوة من الآخر هو الذي ألّف بينهما، وبه بنَيَا عائلة كما في الذرات والمجرات.

وتحويل المرأة إلى رجل، أي صنع امرأة مسترجلة لم يعد يقابل اليوم إلا بالسخرية أو بالامتعاض أحيانًا، ولما أخرجوا المرأة عن أنوثتها وجعلوها مسترجلة، وأخذت تبحث عن مجالات أخرى تعبر فيها عن شخصيتها، فقدت العائلة تناغمها وطمأنينتها، وحُرِمَ الأبناء جوَّ العائلة، فوُضعوا في المحاضن ودور الرعاية، والآباء والأمهات في جو آخر يلهثون وراء متعهم.

القانون الإلهي العام في المرأة يتجلى أيضًا في موضوع "هل تكون المرأة نبية؟".

للمـرأة حالات لا توجد عند الرجل، فلو كانت نبية لعجزت مثلًا عن أداء واجب النبوة وعن الصوم والصلاة والإمامة نحو عشرة أيام في الشهر أيـام الحيض، والنِّفاسُ كذلـك، وفي فترة الحمل يغدو أداء وظائف النبوة أصعب؛ فيسـتحيل عندئذ أن تحارب وتضـع الخطط العسـكرية والإدارية وفـي حضنهـا أو بطنهـا طفـل، والنبي يجـب أن يكون فـي الصف الأول في المعارك.

هـذه الأمـور يسـتحيل معها ظهـور نبية من النسـاء؛ أجـل، فكل هذه الأمـور مـع الموانـع الجسـدية والوظيفية لدى المـرأة تجعلها قاصرة عن أداء وظيفة النبوة؛ وأشار سيد السادات ﷺ إلى هذا الأمر، فوصفهن بأنهن "**نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ**"(١٧).

أجـل، فالمـرأة معـذورة نحـو نصـف شـهر، وعندمـا تلـد لا تصلي ولا تصوم وتترك عبادات أخرى يحرم عليها أداؤها في تلك الفترة، ناهيك بالطبـع عن القيام بوظائف النبوة.

والنبي يُقتدى به ومرشد كامل يُسترشد به وإمام وقائد، وأما الأحكام التـي تتعلـق بأمور النسـاء فنسـاء الأنبيـاء هنّ مصـدر التبليـغ والإرشـاد والتعليم فيها.

---

(١٧) صحيح البخاري، الحيض، ٦؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٣٢.

إصرار الشيطان على الكفر

سؤال: لماذا يصرّ الشيطان على الكفر وهو يعلم أن مآله إلى جهنم؟

الجواب: الشيطان هو المطرود من الوقوف بين يدي الله، المحروم من رحمته، الذي لم يُحسِن استغلالَ الفرص التي في يده بل صيرها وبالًا عليه، وخسر في وقتٍ هو أدعى للكسب؛ فهو بهذا فريسة لدورٍ فاسدٍ تتابع فيه، وهو بحاله هذه لا يستطيع أن يشعر بالحق ويدركه؛ فالشيطان اغترَّ أوَّلًا وتكبر وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٢/٧)، وجال أول جولة في الدور الفاسد بهذه الفكرة الجدلية الشيطانية الأولى وخطا أول خطوة نحو الدوامة القاتلة، وسدّ أبواب الاستغفار كلها بِطِينة الحُجَج والمعاذير، وهذا الكلام فيه ما فيه من عُجبٍ وكبر طافح، وبهذا الفعل تشكلت أول حلقة من حلقات الدور الفاسد.

ارتكب الشيطان هذا الذنب، أما آدم عليه السلام فإنه أخطأ ومدّ يده إلى الشجرة المحرمة، لكنه لما أدرك الأمر أناب إلى الله وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٢٣/٧)، فلم يتشكل عنده الدور الفاسد ونجا إذ حالت المغفرة بينه وبين الذنب؛ أما الشيطان فدافع عن نفسه بحجج شيطانية، وأبى الاعتراف بذنبه رغم تحذير الله له، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فهلك، ثم غدا العدوَّ اللدود لبني آدم، تأمل كيف أعلن عن نفسه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سُورَةُ ص: ٨٢/٣٨)، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧/٧)؛ أي سيكفرون النعمة ما عاشوا، فسترزقهم ويعبدون سواك، تغرقهم بالنعم ويجحدونك...

وكثيرًا ما تحدّث القرآن الكريم عن مبارزة الشيطان في هذا، وعداوته لبنـي آدم، وعصيانه لربه ﷻ؛ فأفضـى به العصيان إلى الطرد من رحمة الله، فعندمـا قـال ﴿أَنَا خَـيْرٌ مِنْهُ﴾ أخـزاه الله؛ ونجم عن أعـذاره التي هي أقبح مـن ذنوبـه وعن عداوته اللدود لبني آدم التي أكّدها باليمين والقسـم طردُهُ كلية من مسـتقرّ رحمته ﷻ حيث الإيجابية والرقة والرفعة؛ ثم خضـع كلية للمنطق الشـيطاني، وغمغـم قائلًا: ﴿فَبِعِزَّتِـكَ لَأُغْوِيَنَّهُـمْ أَجْمَعِينَ﴾، فاختار الغوايـة طريقًا، وكلما غوى ابتعد، وكلمـا ابتعد ازداد حنقًا، فتخلقت عنده فطرة أخرى امتزجت بالفساد والكفران، وكلما ابتعد ازداد بغيًا، وكلما طُرد تمادى في الجهر بحقده وبغضه وغيظه وكبره وعجبه؛ حتى إنه بارز الله في الـكلام وجادلـه، فابتعد عن رحمة الله، فأدى به ذلك إلى العصيان، وسـاقه العصيـان إلـى الابتعاد، فوقـع فريسـة للدور الفاسـد، وكُتِـب عليه "الختم الإلهي"، أي خُتم على قلبه، فهذا يعني أنه لم يعد لديه شيء سوى التفكير في الشر، وانغلق كل طرق الخير عنده وانطفأت مصادر النور كافّة.

وإليكم مثالًا على هذا ليتيسر فهمه: الإنسان كائن مكرم جدًّا، فيمكن أن يرتقـي إلـى مرتبـة الملائكة إن اسـتغل المقومات التـي وُهبت له، فلو أنّ إنسـانًا قمّة في الشـفقة والمواظبة على أداء العبادات من صلاة وصيامٍ وزكاة وحـجٍّ، ولـه علاقـة طيبـة بالناس، فجـاء يوم هُتك فيـه عرض هذا الإنسـان الكامل وانتهكت كرامته وأوذيت مشاعره وأُهين، فتجشّم جهازه العصبي يومًا بعد يوم أعباءً كالجبال الرواسـي، حتى ضاق صدره في فترة ما فانفجر فورًا، ثم ما عاد يُعنَى بالرفق أو العفو أو التسامح، فتطايرت منه شهب الحقد والكره، فلن ترى منه وقتئذ إلا حقدًا وغضبًا كأنه شرر تطيره نار جهنم، ولن تجدي معه النصيحة شيئًا.

وكل فرد رأى وعاش أمثال هذه الحالات في حياته؛ وهكذا الشيطان، فهو كائن تضطرم نيران الحقد والكره والغيظ بين جوانبه ولدى عشيرته وسلالته في كل حين؛ فلا همّ له طول حياته إلا التفكير في الشر، ولن يفكر وهو في هذا الضيق والتوتر السلبي إلا في الكيد لبني آدم، ولن يجد فرصة للتفكير في الخير ألبتة، لأن جوانبه تفيض بالشر؛ فهو يفعل هذا وإن كان يعرف الله من ناحية ما، كما أن المؤمن الغاضب ينسى اللين والوداعة أثناء غضبه مع أنه يؤمن بالله؛ وهكذا الشيطان لا يتذكر الله بل يكفر به رغم أنه يعرفه؛ لأن بين جوانبه ما يحول بينه وبين ذلك.

وهناك كثير من الناس وقعوا فريسة مثل هذه الأشياء الخبيثة كما وقع الشيطان فريسة لمثل هذا الدور الفاسد؛ سقطوا فريسة لمثل هذه المشاعر والأهواء الخبيثة، فعبدوا أصنام النفس والأنانية، ولا يمكن أن يقال: إنّ أحدًا معصوم من هذا الأمر؛ فضماننا الوحيد نحن المؤمنين هو ثقتنا بالله وحسن ظننا به؛ هو حسبنا ونعم الوكيل.

اللهم إنا نعوذ بك أن نسلك شيئًا من الطرق الشيطانية.

دابة الأرض

سؤال: هل هناك علاقة بين "الإيدز (*AIDS*)" و"دابّة الأرض" التي تعدّ من علامات يوم القيامة؟

الجواب: ما زال هذا السؤال يُطْرَح لأنّ مضمونَه مسألة يومية مستحدثة، وفي كل مرة أحاول أن أذكر بعض الأمور، وتقديرًا لرغبة السائل سأحاول عرض الموضوع مرةً أخرى:

معنى "دابة": كائن حيّ يدبّ ويمشي على الأرض؛ وقد ذُكِرَ لفظ "دابة" و"دابة الأرض" في الكتاب والسنة، فمثلًا: لما ذكر الله ﷻ الكائنات المختلفة التي تمشي وتزحف وتدبّ على الأرض قال: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سُورَةُ النُّور: ٢٤/٤٥)؛ أي ما ذُكر هو ما تعرفونه حتى الآن، وهذا الحكمُ عامّ في الكائنات كلِّها من أصغرِها إلى أكبرِها، من الديناصورات إلى الماموث قديمًا والأفيال ووحيد القرن حديثًا؛ وهناك أشياء أخرى من أنواع شتَّى لا تعلمونها ستُخلَق لاحقًا إن شاء الله، ولعلّ منها الإيدز، بل قد تُخلق كائناتٌ شتّى متنوعة حسب الجو والمناخ، وربما لا تكون كائناتٍ حيةً بل مِن نوعٍ آخر.

وجاء في القرآن عندَ ذكرِ رزق الدوابِّ: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/٦)، ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (سُورَةُ العَنْكَبوتِ: ٢٩/٦٠)؛ أي هناك دوابّ كثيرة ضَمِن ربُّ العزة ﷻ رِزْقَها ورِزْقَكم وتكفَّل به، فهو وحده المربّي المُقيت.

وعبارة "دابة الأرض" يذكرها القرآن الكريم في موضع واحد عند ذكر موت نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سُورَةُ سَبَأٍ: ١٤/٣٤).

أما الدابة محلّ البحث فذُكرت في سورة النمل، يقول ربنا جلّ جلاله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (سُورَةُ النَّمْلِ: ٨٢/٢٧)؛ والمعنى: رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف، وقمتم بوظيفة العرض (عرض أسماء الله الحسنى بوجودكم على الأرض)، وأنهى معرض الأرض وظيفته؛ وكان مرادُ الله من افتتاح هذا المعرض معرفته والتعرف عليه والتعريف به، فإذا ما قلّ عددُ العارفين بالله والمؤمنين به واطّرد ذلك يومًا بعد يوم حكم الله على الناس بالمحوِ والفناء؛ فأخرج دابّةً من الأرض تكلمهم بأنّ حكم الله المذكور قد تمّ، وهي دابّة تتكلم بلسان حالها أو مقالها أو بمكبر صوتٍ خاصٍّ بها، تعلن أنَّ الناس لن يؤمنوا بربهم من الآن فصاعدًا، أي ارتفع الإيمان وقلّ في الناس مَن يؤمن، فوقع للإيمان جفوة وضعف وانحسر.

وتلت هذه الآية آيات تتحدث عن يوم القيامة، وهذا يوحي بأن هذه العلامة من العلامات الكبرى للساعة.

إنّ دابَّة الأرضِ مِنْ علاماتِ الساعة العشر[١٨]، ولعلَّها من الآياتِ الأخيرة التي تظهر قبيل الساعة؛ وسياقُ الآية يقتضي أنَّ الإيمانَ سيرتفع من الأرض وينحسر مَدُّهُ وحركته، ويجفُّ وينفد كل ما هو من الإسلام، ولن يخلف المؤمنين مؤمنون آخرون، ولن يزداد المؤمنون بعدئذٍ يقينًا في إيمانهم؛ فربما تتقدَّمُ الفلسفة والعلوم الطبيعية، وتحرز التقنية

(١٨) صحيح مسلم، الفتن، ٤٠.

والتكنولوجيا نجاحًا باهرًا، وتطغى رغبة جامحة في الاختراع لدى الناس من زراعة أطفال الأنابيب إلى اختراع الإنسان الآليّ، وتُوكَل إليهم إدارة العالم؛ فيطوف هؤلاء البُله في بقاع الأرض يقولون: "ها قد خَلقْنا"، ولا يقرّون بوجود الله، وهذا مفهوم من سياق الآية وسِباقها.

وَذَكَر النبيُّ ﷺ هذه المسألة كما جاء في القرآن الكريم، وأشارَ إلَى ما ستضطلع به دابّة الأرض من أمور(١٩).

أما عن علاقة دابّة الأرض بالإيدز فأريد أن أنوِّه أولًا بأنَّ بعض إخوانِنا من ذوي نوايا حسنة يريدون تأكيد الكتاب والسنة بالبحث عن موافقة بين ما ورد فيهما وما ظهر في أيامنا من أحداث ومكتشفات.

وهذه المحاولات هدفها من جهة ما التوفيقُ بين قضايا ذُكرت في الكتاب والسنة والمسائل العلمية والتجريبية صوابًا كانت أم خطأً، وإثباتها في وجه تيارات العلوم الطبيعية والوضعية والعقلانية؛ وذلك لعرضها أمام إنسان عصر العلم والتجربة وبيانها له؛ هذا ولربما تتعرض تلك المحاولات للنقد لاحقًا لكن أرى أنّه لا ينبغي التعجل في القطع بسلبيتها تمامًا.

والحقُّ أنَّ الكلماتِ النورانيّة في الكتاب والسنة لا تفتقر إلى العلوم الطبيعية أصلًا، فالضمير الإنساني يتلقَّاها دائمًا بالقبول لِمَا انعكس عليه منها من بيانٍ ونور.

علاوة على أنه ليس لي ولا لأحد أن ينتقد مثل هذه المحاولات التي هدفها التوفيق والتأليف بين القرآن والسنة وبين العلوم الطبيعية إذا ما قام بها أصحابها لنفض الغبار عن عقولنا؛ وأمّا إن كان هدف هذه المحاولات

(١٩) انظر: سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٢٧؛ مسند أبي داود الطيالسي، ٣٩٥/٢.

غيرَ ذلك كحمل حقيقة القرآن والسنة على نظريات العلوم الطبيعية مثلًا، فنقول: إنها هزيلة هشَّة أضعف من أن تَحْمِل هذه الحقائق السامية؛ إذ كيف نَثِقُ بهذه الأدلة وهي في حالتها هذه لا قطع فيها ولا ظنّ غالب؟ فمن يضمن ألا تهبّ عاصفة علمية أخرى تفنّد هذه الآراء وتبطلها؛ ثم أليس تأصيل آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ بأمورٍ واهية كهذه وبناءُ تصديقنا بالقرآن والسنة على العلوم الطبيعية، أليس هذا من سوء الأدب مع حقائق نَذَرْنا أنفسنا للدفاع عنها؟!

أما الإيدز ودابة الأرض فالمسألة كما تعلمون إحدى القبائح الّتي أطلّت برأسها في هذا العصر؛ وأرى أنّ من الباطل تصوير الباطل، لا سيما مسألة مخزية مخجلة مثل الإيدز، وسأحاول الآن شرح الموضوع على نحوٍ لا يلوث العقول الصافية:

لو صحّ أن الإيدز فرد من أفراد جنس دابّة الأرض، فلن يصحّ القول بأن الإيدز هو دابّة الأرض؛ لأن تأويل الآية به لا غير يبطل حقيقتها إذا ما تبين فساد هذا التأويل، فكم من مرض مدمّر تفشّى حتى اليوم ثم اندثر واضمحل، قال رسول الله ﷺ: "**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**"(٢٠).

وفي رواية: "**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ**"(٢١).

وفي حديث آخر: "**تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: اَلْهَرَمُ**"(٢٢)؛ وفي رواية: "**إلا السام**"(٢٣) يعني الموت، فلا ريب أن كلّ امرئ سيشيخ ويفنى، ولا دواء للهرم والموت، وكلُّ داءٍ سواهما له دواء.

---

(٢٠) صحيح البخاري، الطب، ١.

(٢١) صحيح مسلم، السلام، ٦٩.

(٢٢) سنن أبي داوود، الطب، ١؛ سنن الترمذي، الطب، ٢.

(٢٣) السنن الكبرى للنسائي، ٨٢/٧.

كيف نجمع بين هذا وذاك؟

انتشر هذا المرض "الإيدز" في مناطق من العالم، لكن لم نسمع به كثيرًا في بلادنا والحمد لله؛ ونحن مدينون في هذا للأخلاق والمبادئ العالية التي أرساها الإسلام، وهي إن أعرضت عنها عقولنا لكن لم تتبرأ منها أرواحنا؛ ولم ينتشر الإيدز حتى الآن انتشار السل أو الطاعون قديمًا أو السرطان حديثًا؛ كان يمكن وربما يجب أن يقال عن تلك الأمراض أو عن سرطان اليوم إنه دابة الأرض؛ لكن السلّ والطاعون تلك الأمراض التي كانت مثيرة للذعر سابقًا انسحقت بالأدوية التي خلقها الله، فلم تعد تُذكر في قائمة أفراد جنس "دابة الأرض"، وها هو السرطان يستغلّ آخر حصونه، والعقبى للإيدز.

قديمًا كان الطاعون كابوسًا فظيعًا يجثم على صدور العباد، لكَ أنْ تتخيل كيف قضى هذا المرض دفعة واحدة على نحو ثلاثين ألفًا في طاعون "عَمَواس"، ما أفظعها من حادثة! ولا يُصاب بهذه النوعية من الأمراض في عصرنا سوى دول مُنيت بالإهمال؛ فلو أُوّلت الآيات والأحاديث قبل أن يُرفع الطاعون كما يؤولون اليوم لكان القول بأنّ دابة الأرض هي جرثومة الطاعون أحقّ وأجدر؛ لأنه كان منتشرًا جدًّا ومرعبًا.

وهكذا السرطان ما أكثر من أصيبوا به الآن، يقول أهل الاختصاص: لا يمكن اكتشاف الخلايا السرطانية التي تظهر على إنسان ما إلا بعد زمنٍ طويل تغدو فيه تلك الخلايا خطرًا لا يُقاوم؛ وتشير الإحصائيات العالمية اليوم إلى أنّ نسبةَ السرطان بلغت حدًّا يثير الذعر في القلوب؛ لكن يتعذر حتى الآن أن يقال إنهم اكتشفوا له دواءً، لكنهم يحاولون، وكلنا أمل أن يعثروا له على دواءٍ بفضل الله وعنايته؛ فلو أمكن تأويل دابّة الأرض

بمرض فأرى أن السرطان أحد الاحتمالات الحرِيّة بالذكر في هذا الباب؛ بـل إنّنـا لو قارنّاه بالإيـدز في ضوء الواقـع فلن يبلـغ الإيدز ١/١٠٠ منه؛ ولو بحثنا المسألة بحثًا كميًّا لوجدنا أمراضًا كثيرة واقعة تفوق الإيدز؛ وإن بحثناهـا مـن ناحية الكيفية مـن حيث إنه مرض ليس لـه دواء، فإن عُثر له على دواء أفلا تتزعزع ثقة الناس في الحديث الشريف؟

وأستميحكم عذرًا لأسلط الضوء قليلًا على أحد الأحاديث:

إن بعـض النـاس يؤولـون الآيـات والأحاديث على عجـل دون تدبّر مدّعيـن أنهـم يقدمون أمورًا علميـة نافعة، فنراهم يؤولون حديث رسـول ﷺ: "**فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَـدِ**"[٢٤] بأن جرثومة الجذام تشبه الأسد تمامًا، وهذا تأويل قيل على عجل؛ ولم يلحظ هؤلاء هل لهذا الأمر ضرر أو نفـع علـى الدين إذا ما تبيـن بالمجهر في المسـتقبل أن هذه الجرثومة لا تشـبه الأسـد؛ فتأويلهم للحديث طُبع في أذهان الناس وكأن الحديث يقول بهذا، فإذا ما ظهر خطأ التأويل تحت المجهر فسيُنسَـب هذا التأويل المنافي للواقـع إلى سيدنا رسول الله ﷺ، فيُضرب بالحديث عُرْضَ الحائط حاشاه من ذلك.

ولذا من الضرر والخطأ أن نذكر أمورًا كهذه دون معرفة جيدة بماهية الأمـر، ولا يقتصـر الأمر على مثل هذه التأويلات الواهية، بل علينا -حتى عند إخضاع القضايا الإسـلامية لأسـلم التأويلات وأحكمها- أن لا نغفل الاحتمالات الأخرى، وأن نُفسح المجال لتأويلات بديلة يحتملها النص؛ خصوصًا في يومنا الذي تزعزعت فيه الفلسـفة الوضعية المنطقية، وغدت محلَّ شـكٍّ وارتياب؛ ومن أوسـعِ الأفكار انتشـارًا في الغرب فكرةُ تلافي

(٢٤) صحيح البخاري، الطب، ١٩.

الأخطاء تدريجيًّا للوصول إلى علم لا خطأ فيه، عملًا بمبدأ "كل شيء فيه شيء من الخطأ"؛ وهذه الفكرة أيضًا خاضعة للنقد كبقية المناهج الفكرية الأخرى، لكنها مهمة من وجهٍ ما، إذ إنها تعبير عن زلزالٍ حَلّ بسلطان المذاهب الوضعية والعقلية.

إذًا لما كان هذا القدر من الشك والريبة قد دخل العلوم التجريبية التي يُظنّ صحّتُها وقوتها الآن فمن الجناية على النصوص الشرعية تأويلها بنظريات لا وزنَ لها ولا قوّة في حين ندّعي أننا نعزّز دلالتها ونقوّيها؛ وقد عالجتْ هذه المسألةَ في أيامنا كتبٌ لا ثمرةَ تُرتَجَى منها؛ أجلْ، مَا أَكْثَرَ ما كُتِبَ عن هذا في زمنٍ يسيرٍ، لكن قريبًا ستأتي أجيال تقرأ هذه الكتب، فتسخر منها وتنسب ذلك إلى عجزنا عن استيعاب هذه المسائل؛ أمّا مَن يبحث القضايا بمنظور أوسع واحتمالات شتّى ويذكر أوجهًا عدة للمسألة الواحدة، فستغدو أبحاثه متجدّدة مبتكرة وستبقى غضّة عذبة صافية نقيّة مهما طالت السنون ولو بلغت المِئِين؛ أجل، بين أيدينا آثار قديمة كُتبت على هذا المنوال لا تزال غضة طرية.

ومن الخطأ الاعتراف بصحة ما نسميه أدلة أولًا ثم ترتيب المدعَى والنتيجة عليه، والحال أنه يمكن بلوغ النتيجة بالتدلي من أعلى إلى أسفل، فنقول مثلًا: الله موجود، وهذه الأدلة شاهدة على وجوده؛ ورسول الله ﷺ خاتم النبيين، وتلك الأدلة تشهد بذلك، ويشهد بتلك الحقائق أيضًا صغارُ النمل والكائنات المجهرية التي لا تُرى بالعين... وهذه النظرة غير تلك التي تبدأ بأدلة واهية ضعيفة للاستدلال على وجود مَن له مقاليد السموات والأرض.

وأرى أن أناسًا أخطؤوا تأويل مسألة الإيدز لخطئهم في وجهة النظر، ولهؤلاء المؤمنين المخلصين الأجر على اجتهادهم؛ لكن بينما

نجـد لاحقًا أهلَ الإجحاف مـن الملحدين يتذرّعون بهذه التأويلات نُلفي أبطالَ الإيمانِ والقرآنِ هؤلاء مقنعي رؤسـهم حياءً وخجلًا من تأويلاتهم الفاسـدة؛ ومـن ثم فعلى كل مؤمن أن يتحـرى الدقة في كلامه وآرائه عند حديثه عن الكتاب والسنة ومسائلهما.

لـو قال إخواننا الذين يتناولون هذه المسـألة بنيـة خالصة، ربما يكون الإيـدز فـردًا مـن أفـراد جنس دابـة الأرض، فعلـى الرأس والعيـن ما دام مقصدهم ونيتهم كذلك إن شاء الله.

أجـل، ربما يكون الإيدز بل والسـرطان الذي مـا زال يُفني ويُبيد فردًا من أفراد جنس دابّة الأرض، ويؤدي وظيفة من وظائفها؛ إلا أن هذا لا يعد سببًا كافيًا لأن نطلق على كلّ منهما دابّة الأرض؛ لأن خروج دابة الأرض أمارة على نقص إيمان الناس؛ وربما يكون سـبب خروجها سـوء توظيف النـاس للتقنيـات والعلوم الحديثة؛ فدابـة الأرض بمعناها الخاص بها أمرٌ خـارق للعـادة، تختلف عن أي شـيء حتـى عن أفراد جنسـها، ولها حالة خاصّـة بهـا، ويتعذر إدراكها لغرابتهـا، وخروجُها دلالة على نهاية رسـالة القيم الإسلامية على وجه الأرض.

كيف وإننا نقول اسـتنادًا إلى حديث شريف أخرجه الإمام مسلم: "**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَـارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**"(٢٥)، أي إنّ صوت الإسلام سيدوّي في أنحاء العالم كافّة، وستكنّ لـه الضمائـر كل توقيـر وتبجيـل؛ فلو خرجـت دابـة الأرض الآن لكانت ضربـة قويـة تُطيـح بآمالنا؛ لأن دابـة الأرض إذا خرجت قالـت: لا إيمان ولا تصديـق بعـد هـذا؛ ويلـي ذلـك سـقوط وتخلـف؛ وإننـا علـى يقين

(٢٥) صحيح مسلم، الفتن، ١٩.

بـأنّ الإسـلام سـيرفرف بجناحيه في أرجـاء العالم كلها، ويكـون له وزنه فـي مراكـز القوى العالمية؛ وسـيأتي يوم يولـع فيه المسـلمون في أنحاء العالـم كافـة بالبحـث عن النبـي ﷺ ليجتمعـوا به بعد فـراق كحال هؤلاء الذين نراهم اليوم؛ نحن ننتظر خروج دابة الأرض لاحقًا، ففي عقيدتنا أنّها تخرج قرب قيام السـاعة على الكفار؛ وأي قول غير هذا مخالف لعقيدتنا وضربة تحطّم آمالنا.

دع مـا ذُكـر، إنّ هنـاك مخلوقات كثيـرة تتصورها الأذهـان ويحتمل أن تكون هي دابة الأرض؛ منها الإنسـان الآلي الذي يشـغل أذهان كتّاب الخيال العلمي، ويُعتقد أنّه سـيتحكم في مصير الإنسـانية، ويشـير القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ٨/١٦) إلى أنّ "مَا لاَ تَعْلَمُونَ" لا يسمعونكم ولا يطيعون، وعن الرحمة لا يفقهون، ولبكائكم وأنّاتكم لا يلتفتون، ولا شـيء من رحمتهم وشفقتهم بتضرعاتكم وتوسلاتكم تستجلبون.

ومثار القلق الآن أن المتخصصين في التقنيات يقولون: هذه الأشـياء بعـد برمجتها وضبطها وإطلاقها في الفضاء ربما تحرق الأرض وتدمّرها، وإن طُلـب منهـا أن تكفّ أبتْ وتحولت إلى عامل فسـاد مطلق على وجه الأرض، تقلب كل شيء رأسًا على عقب حتى يُظنّ أنها ستصبح فردًا من جنس الدابّة.

وهـذا القدر من الحديث أيضًا حكمٌ صدر سـريعًا على عجل، فلا بد من الدقة والعناية؛ إذًا ما ظهر الآن من تقنيات عملاقة وميكروبات دقيقة، وما سـيظهر من عجائب كالإنسـان الآلـي والأمراض الوبائيـة والكائنات الدقيقة، بل والأمراض التي لـمّا يُعرف اسمها بعد وستظهر في آخر الزمان

نتيجـة مجـازر سـترتكب يموت فيهـا الملاييـن... كل هذا قد يمثـل دابةَ الأرض التي هي اللسان المبين عن موت الأرواح أوّلًا ثم الأجساد.

وأرى أن هـذه النظـرة إلى المسـألة من شـأنها أن تحفـظ هيبة القرآن والسنة وقدْرَهما، وتحافظ على أبعادهما الإلهية.

وبعـد، فأقول بكل صدق إن هؤلاء الإخوة المخلصين الذين تحدثت عنهـم آنفًـا ولـم أوفّهم حقهـم يخطئون في مسـألة تتطلب شـروطًا كثيرة الإخلاصُ شـرطٌ واحد منها فحسـب؛ فالإخلاص شـيء، وتوقير الكتاب والسنة والولاء لجوهرهما شيء آخر.

"أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ"

سؤال: هل من دليل عقلي على سـؤال ﴿أَلَسْـتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وعلى جواب ﴿بَلَى﴾؟

الجواب: بعض المسائل يصعب إثباتها عقليًّا، لكن يمكن بحث إمكانيتها وعدم اسـتحالتها؛ وإذا قال الله تعالى شـيئًا فلا مجال لأي اعتراض؛ ولهذا السؤال شِقّان:

١- أحَدثَ هذا الأمر؟ وإذا حدث فكيف يمكن أن نبرهن عليه؟

٢- هل يدرك المؤمن هذا الأمر؟

أوَّلًا: هل قوْل الله تعالى في عالمٍ ما للأرواح "ألست بربكم؟" وقولهم "بلى" ثابتٌ قطعًا؟

ورد هـذا الموضوع في القرآن الكريـم: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٢/٧) تحدثت الآية عن العهد الذي أخذه ربنا على بني آدم، واختلف المفسّرون قديمًا وحديثًا في الزمن الذي أخذ فيه هذا العهد.

يـرى بعضهـم أنَّ الله تعالـى أخـذ هـذا العهـد علـى ذرات الإنسـان التي ستتألف بعدئذ وستحل أرواحها فيها.

وقال المدقّقون منهم: "يؤخذ هذا العهد عند نفخ الروح في الإنسان"، ويستدلون على رأيهم هذا ببعض الأحاديث الشريفة.

والحقيقـة أنّ كلام الله تعالـى مـع مخلوقاته له أشـكال مختلفة، فنحن مثـًلا نتكلـم بأسـلوب ونمط معيّن، ولنا أيضًا أسـاليب أخـرى في الكلام النفسـي واللفظي، ولنا مشـاعر باطنـة وظاهرة، ولنا عقـل وروح، وظاهر وباطـن، فنسـتعمل هذه المشـاعر أيضًا بيـن فينة وأخرى لنوصل رسـائلنا إلى من يفهمها.

وللقلب لغة خاصة يتحدث بها لكن لا أحد يسـمع حديثه، فإذا قيل: "بماذا كنت تحدث نفسـك؟" لأَجَبنا "كـذا وكذا" أي نحوِّل ذلك الحديث النفسي إلى كلمات مرتَّبة.

وللأحـلام حديثهـا الخـاص، نتحـدث ونسـمع كلام الآخريـن، ولا يسـمع من بجوارنا هذه الأحاديث، وعندما نسـتيقظ نروي للآخرين ما قلناه وما سمعناه في الحلم.

ولعالـم المثـال حديثـه الخـاص، فهنـاك من يـرى مشـاهد وهو يقظ ويتكلـم مـع أشـخاصٍ من ذلك العالم في اليقظة؛ قـد ينكر المادّيون هذا ويقولون: "إنها ليست إلا خيالات وأوهامًا"؛ فليقولوا ما يقولون، فهذا كان من مظاهر تصديق الرسـول ﷺ؛ تُعرض أمامه مناظر من عالم المثال ومن عالم البرزخ، فينقل ﷺ ما سمعه هو وما رآه.

وللوحي نوع وطرز آخَر في الحديث، فرسولنا ﷺ يأتيه الوحي، فيشعر به ويسمعه ويعي عنه، ولكن كان هذا في بعد مختلف، فليس غير الرسول ﷺ يسـمع أو يفهـم شـيئًا، ولـو كان الوحي شـيئًا ماديًّا لسـمعه الآخرون كذلك، خاصّة أنه كان يأتيه أحيانًا ورأسه على فخذ إحدى زوجاته أو على صدر صحابي وركبته على ركبته، فيسمعه ﷺ ويتلقاه ولا يسمعه أو يحس بـه مـن حوله؛ يتلقـاه ويحفظه عن ظهر قلب، ثم يبلـغ بـه الآخرين، وهذا طرز آخر من الأصوات والأحاديث.

ولقلب الولي طرز آخر من الكلام، يأتيه كالهمس في قلبه، وهذا الطرز شبيه بالتخاطب بوساطة الشفرات، فكما يقال في شفرة مورس: "دي.. دي.. دا.. دا.. ديت" ويفهم المستقبل معناها، كذلك يقال فيما يرسل إلى قلب الولي ليستخرج منه معاني، فمثلًا يقول الولي: "فلان ابن فلان أمام الباب الآن" فيفتحون فيجدونه أمام الباب.

وظاهرة "التخاطر (*Telepathy*)" طرز آخر من الكلام، وعلماء اليوم يتوقعون التخاطب به في المستقبل؛ أي التواصل بين قلب إنسان مع قلب آخر وتخاطب الناس فيما بينهم باطنيًّا؛ ويدل هذا كلُّه أن الله تعالى خلق ما لا يعد ولا يحصى من أنواع الكلام والخطاب.

ولنرجع إلى موضوعنا، قال تعالى: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٢/٧)؛ لكننا لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف كيف قال وتحدث، فإن كان إلهامًا يُلهَمه الولي فلن يكون حديثًا بصوت؛ فإن كان حديثًا للروح فهو ليس بحديث للجسد، وإن كان للجسد فهو ليس للروح.

هذه النقطة مهمة جدًّا: قياس ما يراه الإنسان ويسمعه في عالم المثال وعالم البرزخ وعالم الأرواح بمقاييس عالمنا هذا خطأٌ جسيم؛ فالصادق الأمين ﷺ أخبرنا أن منكَرًا ونكِيرًا سيسألاننا في القبر، كيف يا ترى هذا السؤال؟ وهل سيخاطبان روح الميت أم جسده؟ أيًّا كان المخاطَب فالميت سيسمع، ومَن حوله وبجواره لا يسمعون شيئًا، ولو وضعت مسجلًا ووصلت مكبر صوت بالقبر فلا يمكن تسجيل أي صوت، لأن الخطاب يتم هنا في أبعاد أخرى؛ وكما أشار "أينشتاين" وغيره إلى وجود بُعد رابع وخامس، فالمسألة تختلف باختلاف الأبعاد، وتظهر بطابع مختلف.

فقول الله تعالى: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٢/٧) خطاب خاص بالأرواح، فلا يمكننا أن نسمعه أو نحفظه؛ نعم، ربما انعكس هذا

في وجداننا، أي نستطيع أن نشعر به بوجداننا وبالإلهام الذي انعكس على وجداننا.

كنت مرة أشرح هذا الموضوع فقال أحدهم: "لم أسمع ذلك القول" فقلت: "لكنني سمعتُه، فإن لم تكن قد سمعتَ فهذه مشكلتك، ولكني متيقنٌ أنني سمعتُه"، فلو سُئلتُ كيف سمعتَ لقلت: سمعتُ هذا الصوت عندما شعرت برغبتي في الخلود، مع أنني محدود فانٍ.

أجل، لا أستطيع إدراك الله تعالى لأنني مخلوق محدود ومقيَّد بقيود؛ إذ كيف يستطيع المقيد أن يدرك المطلق؟ فأنا أعلم أنني سمعته وشعرت به عندما وجدت في نفسي مثل هذه الرغبة في اللامحدود وعشق الخلود؛ فمخلوق ضعيف مثلي في مثل هذا العالم المحدود يُفترَض أن يقضي حياته المحدودة ثم يموت، وتكون آماله وأفكاره محدودة بحدود عمره، لكنني وجدتني أفكر في الخلود وتثور عندي الرغبة في الأبدية، وأتلهف للجنّة ولرؤية جمال الله، فملك الدنيا كلها لا يُشبع رغباتي، فهذه الحال تجعلني أقول "لقد سمعتُه".

إن الوجدان -أيًّا كانت ماهيته- يهفو بوحداته وأبعاده لربه سبحانه، ويترنم به على الدوام، وهو لا يكذب؛ ولن يرتاح ويبلغ السعادة والطمأنينة إلا عندما يحظى بما يرغب ويطلب، وأشار القرآن الكريم: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ٢٨/١٣) إلى أن اللطيفة الربّانية "القلب" لن يطمئن إلا عندما يبلغ الوجدان الطمأنينة.

أمر آخر: بعض الفلاسفة أمثال "برجسون" هجروا الأدلة النقلية والعقلية برمتها وقالوا: "الدليل على وجود الله تعالى هو الوجدان"؛ ووصل الأمر بالفيلسوف الألماني "كانط" أن يقول: "لكي أُدرِكَ الله تعالى إدراكًا يليق بجلاله وعظمته؛ وأعرضت عن معارفي كلها"، وعلى هذا

الدرب سار "برجسون" بـ"الحدس"، فـ"الوجدان" عنده هو الدليل الوحيد، فالوجدان يتألم عند إنكار الله وجحوده، ويسعد ويطمئن بالإيمان به سبحانه.

وعندما يُصغي الإنسان إلى وجدانه ويغوص في أعماقه يرى ويحس هناك بوجود رغبة شديدة في الإيمان بمعبود أزلي أبدي، فهذا هو الدليل على قولهم ﴿بَلَى﴾ التي عبروا عنها بكيف مجهول في استجابتهم للخطاب الإلهي ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. ومن يرهف سمعه للصوت الآتي من أعماق روحه فسيسمع هذا الصوت؛ أمَّا إن بحث عن هذا الصوت في عقله وفي جسده سقط في التناقض؛ فهو موجود في ضمير كلِّ فرد ومكنون فيه، ولا تتم البرهنة عليه إلا في ميدانه وفي ساحته، وقد رأى الأنبياء والأولياء والأصفياء هذا وأدركوه بكل جلاء وصفاء وبينوه وأبانوا عنه.

أمّا عقلًا فلا يستطيع العقل طبعًا إلا إثبات المحسات كإثبات وجود شجرة الصنوبر أو شجرة الدُّلب، فالاستدلال بالعقل هنا غير وارد، ولكن من أصغى إلى وجدانه، واستبطن داخله، أحسَّ وسمع ذلك الصوت وأدركه وشعر به.

نـزول القـرآن مـنـجَّـمًا

سـؤال: مـا الحكمـة من نـزول القـرآن الكريم منجَّمًـا في ثلاث وعشرين سنة؟

الجـواب: لـو لم ينزل القـرآن الكريم في ثلاث وعشـرين سـنة، ونزل جملةً واحدة في وقت واحد لقالوا: لِم نزل القرآن جملة واحدة ولم ينزل منجَّمًا؟

هذه المسـائل وأشـباهها تعبديّـة ينبغي التسـليم بها وتوقيـر الله فيها، وإلا تكاثرت الأسئلة في كل شأن: لماذا صلاة الظهر أربـع ركعات؟ ولماذا كانـت صلاة الجمعة في يوم الجمعة؟ ولماذا كانت الزكاة ٢,٥٪ وليسـت ٣٪ ؟ وغيرهـا مـن الأسـئلة التـي لا تنتهي؛ لـذا ينبغي لنـا أن نعلم أن كل هذه الأمور من أسـرار العبودية. نعم، للصلاة حِكَم بلا شـك، فللفرد كثير من المنافـع والمصالح بوقوفه خمس مرات في اليوم بين يدي مولاه ﷻ، أمّا عدد الركعات فتوقيفية شـرعها الله تعالى بنفسـه، فلو قيل لنا: "عليكم أن تـؤدّوا هـذه العبـادة خمس مرات فـي اليوم، ولكم أن تحـدّدوا هيئتها، فالأمـر إليكـم" لَبحثْنـا في عدد الركعـات، لكن ربما يكون الشـكل الذي خطّطنا له جاريًا وفق ظروف حياتنا وأعمالنا اليومية؛ فتقدير الوحي شيء، وتقدير العقل شـيءٌ آخر؛ فالوحي يرعى معنويات الإنسان وَلَدُنّيتَه، وعلى ذلك ينسج الحِكَم.

ولنـزول القـرآن الكريم منجمًا في ثلاث وعشـرين سـنة حِكم كثيرة، فالعهـد الـذي نـزل فيـه القـرآن هـو ذلك العهـد الـذي اقترب فيه البشـر مـن الكمـال؛ لذا بُعث فيهم أكمـل الأنبياء، محلُّ نظـر الله تعالى ورحمتُه

للعالمين، سيدُنا ﷺ؛ فكان على صحابته ﭫ أن يبلغوا الذروة في الرقي، وأن يرتقوا أسمى الدرجات في معارج الكمال ليضطلعوا بتعليم الأمم المتحضرة؛ بيد أن أرواحهم وعروقهم قد أُشربَت ما كانوا عليه في الجاهلية من ذميم الطباع وسيّء الأخلاق، فكان الواجب تخليتهم من الصفات الذميمة واحدة تلو أخرى، وتحليتهم بالأخلاق الحميدة، وتغذية فِطرتهم بالطباع السليمة شيئًا فشيئًا؛ فلو نزل القرآن الكريم بأوامره جملة واحدة وكلفهم بها لَشقَّ عليهم، ولما استطاعوا أن يأتوا بكل ما أمروا به مرة واحدة، ولَتنافى ذلك طبعًا مع سنّة الإنسانية في رقيّها نحو الكمال.

وإليكم مثالًا من واقع حياتنا، بعض من ابتُليَ بالتدخين وشرب الخمر أو التسكع في الشوارع أو الجلوس على المقاهي، لو قطعتَ رأسه أو قلتَ له: "لو ذهبتَ إلى المقهى فستهلك يا أخي" لأصرّ على ذلك واختلق كثيرًا من الأعذار، ولو حدث أن مكث في البيت ولم يذهب إلى المقهى في يومٍ ما لانزوى في ركن من البيت وظل يتأفف ويتبرم، وما إن تتاح له الفرصة حتى يسارع إلى المقهى؛ لأن طرز حياته الذي طالما اعتاد عليه قد تغير، علمًا أنّها عادة هيِّنة لا داعي لها.

وهاكم مثالًا آخر، لو قلت لمدمن التدخين: "أَقلِعْ عن هذه العادة، فهي تضر بصحتك، والتدخين انتحارٌ بطيء، كأني بك تطعن صدرك شيئًا فشيئًا بخنجر في يدك، ثم ما يلبث أن يفتك بك"، بل لو عمدت إلى طبيب ليحدّثه عن أضرار التدخين، ويقول له: "لا فائدة ترجى من التدخين، وله ما له من الأضرار"، لتردّد ذلك المدخن كثيرًا في أمر إقلاعه عن التدخين؛ دع عنك هذا، فبعض الأطباء أنفسهم وهم أعلم بأضرار التدخين لا يقلعون عنه.

ومدمـن الخمـر أيضًـا؛ ذلك الرجـل الذي مُسـخ، وتبدلـت أحواله، وتغيـر عالمـه الداخلي، حتى إنه لـو انحطّ دركة أخرى لتشـابه هو وأدنى المخلوقـات عنـه، فإن قلـت له: "أقلـع عن شـرب الخمر دفعـة واحدة"، فكأنك تقول له: غيِّر فطرتك.

وهكـذا فبوسـعكم أن تعـدّوا آلافًـا من العـادات الذميمـة والأخلاق السيئة التي تسري في دم الناس وعروقهم، إذا تأملتم هذا فهلموا بنا لنتفكّر في مسألة نزول القرآن الكريم منجّمًا.

أجـل، مـاذا فعل القـرآن؟ فعل ما يفعلـه من يقتلـع الشـوك، ويحرث الأرض، وينقّيها من العلائق الضارة، ثم يزيّنها؛ أي إنه انتزع من أرواحهم سيء الطباع أولًا، ثم استبدل بها حميد الخصال، لقد عمل الكثير في زمن يسير.

وبنـاءً علـى هـذا؛ فإننا نرى أن نزول القرآن في ثلاثٍ وعشـرين سـنة كان سريعًا جدًّا، يقول مؤلف رسائل النور: "فليأخذوا مائةً من فلاسفتهم، وليذهبوا إلى الجزيرة العربية، وليعملوا مائة سنة؛ هل يتيسر لهم أن يفعلوا جزءًا من مائة جزء مما فعله ﷺ في سنة واحدة؟!"(٢٦).

ولا يخفى على أحدٍ اليوم ما خلّفه الخمر من الدمار في آلاف البيوت! واليـوم تَعقـد جمعيـاتُ مكافحة المخـدّرات مؤتمـراتٍ دوريّة، اتسـعت أنشـطتها حتى بلغت المدارس الإعدادية والثانوية، لكن كم شخصًا اقتنع فأقلـع عن شرب الخمر؟!

لـو أن الجامعـات بأسـاتذتها جميعًـا بذلـت كلّ طاقاتهـا فـي هـذا الأمر؛ فهل يا ترى سـتتمكن من أن تقنـع عشـرين شـخصًا فقط بالإقلاع

(٢٦) بديع الزمان سعيد النُورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة عشرة، ص. ٢٦٨.

عـن شـرب الخمـر؟ لو أفلحـت فذلك نجـاح باهر يُسـجّل لهـا بحروف من ذهب؛ ولكن هيهات هيهات، فهذا الأمر حدث مرّة واحدة، ثم أجمع الأعداء والأصدقاء أن تكراره مرّة أخرى أمر مستحيل.

أجـل، إن نـزول القـرآن في ثلاث وعشـرين سـنة سـريع جـدًّا؛ فما فعلـه القـرآن في هـذه المدة معجزة باهـرة، وما قطعه النبـي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة خارت قوى البشر عن بلوغه في آلاف السنين، فما اسطاعوا ولن يستطيعوا.

وبينما كان القرآن الكريم يستهدف التخلية من آلاف الخصال السيئة، كان يضطلـع أيضًـا بالتحليـة بحميـد الخصـال وتزيين النـاس بالأخلاق القرآنيـة العالية، وهيّأ الناس لقبـول هذا كلّه دون أن يبتذل أحدًا أو يجرح مشـاعره أو يثير في نفسـه ذعرًا أو يلحق بروحه أي أذى، فمعظم القضايا التـي نـزل بها القـرآن تدرّجـت علـى مراحل متنوّعـة ثم أخـذت مكانها في التطبيق، وإن تطبيقَ شـيء يسـير منها في الحياة العملية اليوم ليتطلب أضعاف تلك الفترة (ثلاث وعشرين سنة).

كانـت تلـك الفتـرة ضروريـة ليتقبـل الإنسـان إذ ذاك أوامـر ونواهي تتطلب وقتًا لتطبيقها، ولإلغاء أمور ووضـع وتأسـيس أمور أخرى مكانها؛ مثلًا حُرِّمت الخمر في تلك الفترة على عدة مراحل، وجاء النهي عن قتل الموؤودة على مرحلتين، وحُلّت مشـكلات الحياة القبلية المتشـعبة على مرحلـة أو اثنتيـن مـن خلال تشـريعات مجهِدة جدًّا، انتُزعت منهم سـيّءُ الطبـاع لتحلّ مـكارمُ الأخلاق محلّها، فتوحدت القبائـل وحدةً ترقّت بها في أجواء الشعور الاجتماعي، فغدت قادرةً على تشكيل مجتمعها الخاص.

هذا وتقتضي الظروف اليوم نظامًا متوازنًا اجتماعيًّا -وينبغي أن تطوّع الخطـة على حسـب تغيـر الظروف في السـنوات القادمة- ثـم نظامًا آخَر

للتغيرات الواقعة في التفصيلات وَفقًا لظروف السنوات التالية، وفي هذا ضمانٌ لديمومة ما نقوم به من أعمال مع مراعاة تقلّب الزمان وطبيعة الأشياء، هكذا كان المسلمون في عصر السعادة ينمون نمو الشجرة الباسقة، ويتناغمون مع المستجدّات تدريجيًّا، ويتطورون بصورة فطرية؛ فتزايد دخولُ الناس في الإسلام وأُنسُهم به يومًا بعد يوم، وتكشفت للمسلمين أفكار ومشاعر جديدة، ثم تربّى هؤلاء المسلمون تدريجيًّا على الأوامر الإسلامية حتى غدوا بمرور الزمن أفرادًا اجتماعيين، جرت كل هذه الأمور متدرِّجةً، متعاقبةً في انسجام وتناغم، وتتابعت هذه الصفحات بعضها إثر بعض، فغدت مرآة تجلّت فيها خصائص حقيقة الإسلام الخالدة.

فلو نزل ما نزل جملةً واحدة لا في ثلاثة وعشرين عامًا لما أطاقه ذلك المجتمعُ الذي كان يعيش حياة أشبه بحياة البدو، ولنضرب لهذا مثلًا: لو تعرض إنسان للشمس فلسوف تطرأ على جلده بعض التغيرات، فإن ذهبت به إلى المناطق الباردة فلسوف تظهر عليه أيضًا تغيرات يسيرة حسب طبيعة المنطقة، لكن لا يتعرّض لتغير جذري بقوة ٢٠ طفرة وراثية ألبتة، فالكائن الحي يهلك إن تعرض لهذه النوعية من التغيرات الطبيعية السريعة.

ولو أنّ شخصًا يعيش في ضغط جوي معين ثم حلَّق فجأة ٢٠ ألف قدم مرة واحدة لمات في حينه، فالطائرة عندما تحلّق على هذا المستوى من الارتفاع تؤمن أقنعة الأوكسجين وغيرها، ثم تحلّق بمنتهى الحذر.

إذ إن التحليق ٢٠ ألف قدم دفعة واحدة يُودِي بحياة الإنسان، وهكذا فلو نزل القرآن الكريم فجأة في مجتمع اختلّ فيه مفهوم الحياة والأسرة والفرد، ثم قال لهم في حينه: "إليكم التشريع فطبقوه، وهاكم الأوامر

جميعهـا فنفّذوهـا!" لَما تقبّل أحد في هـذا المجتمع ذلك؛ لأن معنى هذا أنـك تريد أن ترتقي بهـذا المجتمع ٢٠ ألف قدم فورًا، وهذا ما لا يُطاق؛ فنـزول القـرآن الكريم بأحكامـه منجمًا في ثلاثة وعشـرين عامًـا وقراءته على الناس على مكث أليق بالطبيعة البشرية وأوفق لفطرة الإنسان.

لا يمكننـا أن نفصـل الإنسـان عـن الكون، فـلا محيد إذًا عن دراسـة الإنسـان وفـق حركة الأحـداث في الكون؛ بـل لا يمكـن أن تفهم ماهيته بعيدًا عنها، ونحن مضطرون إلى التسـليم بهذا، فالتدرج الكوني في النمو والتغيرات والقوانين يجري مثله في رقيّ الإنسان وكماله، والقرآن الكريم الـذي هـو أُس الرقي ومركـزه ومجمـع مبادئه راعى هذا الأسـاس فتدرّج في النزول على ثلاث وعشرين سنة.

ولله ﷻ حكمـة فـي أن كانـت هذه الفترة ثلاثًا وعشـرين سـنة، وكان يمكن أن تبلـغ أربعًا أو خمسًـا وعشـرين سـنة، وله سـبحانه حكمة أيضًا أن عاش النبي ﷺ ٦٣ سنة، وكان يمكن أن يعيش أربعًا وستين سنة ويستمر الوحي سنةً أخرى، ولكن ما إن مضت ثلاث وعشرون سنة من نبوته حتى وافتـه المنيّـة ﷺ واختتمـت النبوة وانقطـع الوحي، ولـو كان ذلك لأذعنّا كذلك لحكمة ربنا في ذلك.

والله أعلم بالصواب.

محيي الدين بن عربي والشجرة النعمانية

سؤال: كيف نجمع بين الحقائق وإشارات كتاب "الشجرة النعمانية" لمحيي الدين بن عربي؟

الجواب: لم أقِفْ على هذا الكتاب مطبوعًا، وأظن أن له مخطوطات في عدة مكتبات، منها مكتبة السليمية في أدرنه.

يظهر من معظم مؤلفات محيي الدين بن عربي ومنها الشجرة النعمانية أنّه عرف بعض الحقائق كشفًا، وأخبر بغيبيات ألهمه الله بها، فهو من أهل الكرامات، وقطب أحد المشارب؛ له تأويلات ظاهرية وباطنية كثيرة، انكشفت له بفضل الله ﷻ أمور من الماضي والمستقبل كأنها صفحات كتاب بين يديه.

وذكره للحوادث المستقبلية كقوله: سيقع كذا بتاريخ كذا، أمرٌ واضح عنده ومختلف عن غيره؛ كثيرٌ من أولياء الله ذكروا أشياء كهذه بإلهامٍ وفضل من الله، لكنهم لم يبلغوا مبلغه في الوضوح والتصريح.

ومحيي الدين بن عربي ليس الأولَ والآخر في هذا المضمار، بل خلَفَه كثيرون أخبروا بأمور على هذه الشاكلة وفي هذا الاتجاه؛ ومن قبلهم جميعًا أنبأَ معلِّمُ البشرية والمرشدُ الأكمل سيدُنا محمد ﷺ بأمور وقعت وأخرى ستقع. أجل، إن سلطان السلاطين عرض أمام أنظار أمته الحوادثَ التي ستقع حتى يوم القيامة وكأنه يشاهدها على شاشة تلفزيونية؛ بعضها صريح جليّ لا يحتاج إلى تفسير أو تأويل، وبعضها

علـى شـاكلة المتشـابهات في القـرآن الكريـم، يتعذر فهمها إلا بالتفسـير والتأويل، خصوصًا أن منها ما لا يفهمه إلا أهل التحقيق.

أمـا مكاشـفات العارفين بـالله وإخبارُهم بأمور موجِّهـة لنا فمرجعهم في ذلك القرآن أو السـنة أو إلهامات ترد إلى قلوبهم مسـتمدة من مشـكاة النبـوة مباشـرة؛ فيطّلعـون على حقائـق، ثـم يبيّنونها للناس بلغـة خاصة؛ ورجال الحقيقة الذين تنكشف لهم هذه الحقائق صلتهم بالله تعالى وثيقة، وهـم برآء من الظهور والادعـاء، يُجري الله على أيديهم آلاف الكرامات، ويبثون آلاف الرسائل الخفية لكنهم لا ينزلقون إلى الادعاء مطلقًا؛ الكلمة الوحيدة التي لا تفارق ألسـنتهم هي: "والله أعلم بالصواب"، ولو أن الأمر هنـا قام على هذا الأسـاس أي أنّ الله هو مـن يخبرهم ويُطلعهم على هذه الأمـور وهـو من يهب جذر الأمـر ونواته، لصار الاعتـراض هنا من أجل الاعتـراض ليس إلا، وعندئـذ لا تكون لمثل هذه الهمهمات والهمسـات التي تستعلي بها النفس أية قيمة علميًّا.

عندنـا مصدران مباركان سـوى القرآن الكريم -الوحـي المتلو- هما الأحاديث القدسـية، والأحاديث النبوية، وكلاهما ينبـع من وحي من الله، ولمـا كان النبـي ﷺ أفصـح العـرب وأفضل مـن يبين عـن مقاصده، وهو مـن يفقـه معانـي مـا يأتيـه علـى أفضـل وجـه، بلّغنا مـا نُفث فـي روعه وما أوحي إليه وحيًا خفيًّا بأعظم بيان وأعذبه؛ وإذا كان الولي ينسب كل أمر إلى أسـتاذه أسـتاذ الكون، ويسـتخرج معانـي من بحر علمـه اللدني، فما الغرابة والعجَبُ في هذا؟!

وقد تُكشف بعض الحقائق لبصيرة الولي فيراها من بعيد -وهذا ممكن اليوم كما وقـع بالأمس- إلا أن الولي ربما لا يسـتطيـع أن يحدِّد المسـافة أو يثبت الحقيقة كما هي؛ وأحيانًا يرى حادثة في صورة رمز، ولا يستطيع

أن يقف على تأويلها، فيُؤَوّلها من عند نفسه، ظانًّا أن تأويله مصيب، لكن الحقيقة الغيبية ليست كذلك. وهذا كالرؤى التي يراها الإنسان، فمثلًا ترى في منامك ذهبًا وفضة، فتظن أن الحق جل جلاله سيفيض عليك بالإحسان الجزيل، أو ستنتفع ماديًّا أو معنويًّا وستحظى بشيء ما، بيد أن الذهب والفضة في الرؤيا يُفسَّران بتعاظم قوى النفس الأمارة وغلبة أهوائها؛ وإذا رأيت في المنام جبرائيل عليه السلام يدخل من نافذة بيتك فستظن أن فيضًا إلهيًّا سينزله الله على بيتك قريبًا؛ فقد دخل الروح الأمين بيتك، بيد أن معنى هذه الحقيقة المرمز إليها بمثل هذه الواقعة تُفسَّر في عالم المثال بأن شخصًا من هذا البيت ذا روح سامية سيلحق بالرفيق الأعلى.

وإذا رأى الإنسان في منامه أنه لقي إنسانًا في صورة مستقبحة، فسيظنّ أن ذلك لأنه ارتكب ذنبًا أو سيرتكب، بيد أن هذا يؤوَّل بأن ذلك الإنسان سينتفع منه بشيء؛ وقد جرت مثل هذه الواقعة للسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد رحمهما الله، رأت في منامها ما يرى الرجل في منامه، وأن ذلك كان بينها وبين أهل بغداد جميعًا، فخافت وارتعدت، وما كان أحرص منها على عفتها وشرفها، فسألت، فقيل لها: ستفعلين خيرًا ينتفع منه الناس جميعًا؛ فنالت السيدة زبيدة بعدئذ شرف سقاية حجاج بيت الله الحرام أي كانت سببًا في ذلك.

وهكذا الولي إن لم يدرك المعاني الحقيقية لرموز الحقائق في عالم المثال فلربما يخطئ في تأويل بعضها، ولا اختلاف حينئذ بين الحقيقة والمعاني التي يذكرها الولي من حيث النواة والبذرة، إنما الاختلاف في الإجمال والتفصيل، وفي اختلاف لغة الرموز عن لغتنا؛ والأنبياء وخواصّ ورثتهم هم وحدهم من تيسر لهم إزالة هذا الاختلاف وتبليغ الرسالة للناس بوجه صحيح؛ فالأنبياء معصومون عن أن يَضلّوا

أو يخطؤوا، ولو أخطأ اجتهادهم لبيّن الله لهم الأمر فورًا، لأنهم أئمة الخلق جميعًا، وخطأ الأئمة ليس قاصرًا عليهم بل يتعدى إلى من يتبعونهم، فهم إنما يبلغون بلاغًا يضمّ ويحتضن الإنسانية بأسرها.

أما بصدد ما نحن فيه، فما يقوله الإمام محيي الدين بن عربي -مستندًا فيه إلى الكتاب أو السنة أو الإلهامات التي ترد إلى قلبه- حقٌّ، إلا أن بعض الأمور التي انكشفت له رمزًا، واستعصى عليه تأويلها من حيث مسلكه ومشربه ووظيفته وعصره، فقد أوَّلها تأويلًا مخالفًا للسنة، ثم جاء أهل التحقيق كالإمام الشعراني وملا جامي فحاولوا إيضاح ما أراده ابن عربي بتأويلات منطقية.

أما ما ورد في كتاب "الشجرة النعمانية" فقد تحقق بعضه، وسيتحقق الباقي إن قدّر الله ذلك، من ذلك أن محيي الدين بن عربي أخبر بحوادث عن الدولة العثمانية وما بعدها تصريحًا أو تلميحًا، وهو إنما عاش في عهد السلاجقة قبل تأسيس الدولة العثمانية، وعُثر على قبره في عهد السلطان سليم الأول، تُروى عنه كلمة جديرة بالذكر، يقول: "إذا دخل السينُ في الشين ظهر قبر محيي الدين" ومراده بالسين السلطان سليم، وبالشين الشام، ولما فتح السلطان سليم الأول الشام ظهر قبره وعُرِف قدره.

كان محيي الدين بن عربي يتكلم عن أمور معتمدًا على إلهامات ونفحات ربانيّة، فهو لا قِبَلَ له بها؛ إذ لا يتأتى لإنسان من عظم ولحم أن يتحدث عن مثل هذه الأمور؛ لقد توجه إلى الله بكلّ كِيانه، وصار كالملائكة في ماهيته، فوهبه الله -تكريمًا لماهيته- لطافة الأرواح والروحانيين، فنفذ بهذا اللطف إلى حقيقة الأشياء، بل إلى شيء مما كان ومما سيكون، فتكلم عن حوادث غائمة كانت، وعن وقائع مجهولة ستكون، من ذلك أنه تحدث عن نشأة الدولة العثمانية ورقيها،

وعن حوادث تاريخية مهمة كفتح السلطان مراد الرابع لِـ"رُوَان" في ستة أشهر، ونحو ذلك، ومن كراماته الجديرة بالذكر حديثه عن الكهرباء في كتابه الفتوحات؛ الأمر الذي عجب له أديسون وأكبرَه.

ولم ينفرد محيي الدين بن عربي بهذا المجال وإن كان قطبَه؛ فمثلًا أخبر "مشتاق دده البتليسي" عن نقل العاصمة من إسطنبول إلى أنقرة قبل وقوعه بنحو مائة سنة، وكتبت الجرائد عن ذلك لاحقًا.

ومع هذا، فالحقائق التي اطلع عليها هؤلاء العظماء ليست من الأمور التي لا تتغير ولا تتبدل، فالله قادر على تغيير كلّ شيء، ومن ذلك تغيير ما شاهده هؤلاء العظماء وسمعوه وعلموه، فالله تعالى فعال لما يريد يتصرف في كل شيء كما يشاء ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٢٩/٥٥).

فهو سبحانه يغير كل شيء نشهده، وله أن يغير في "لوح المحو والإثبات" ما لا نشهده ولا نطلع عليه من الحوادث بأبعاد غير التي عهدناها، ﴿**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ٣٩/١٣)، أما أمّ الكتاب فهي علمه سبحانه، والقدَر عنوان من عناوين علمه الإلهي، وما ذكره محيي الدين بن عربي حقٌّ بقدر اطلاعه على هذا، وأما ما أُخبر عنه مما لا يوافق الواقع فإما أنه لم يعلم تأويله الصحيح، وإما أنّه لم يحِن وقتُ هذه الحقيقة بعد، وإمّا أننا لم نُدرِك كنه ما أراد.

والله أعلم بالصواب.

حكمة الصلاة على النبي صلى اللّٰه عليه وسلم

سؤال: إذا كانت رحمات الله تعالى تتنزل على رسوله ﷺ في واقع الأمر، فما الحكمة من صلاتنا ﷺ؟

الجواب: الرسـول الأكرم ﷺ نواةٌ لأصول الخير واليمن والبركات، هو أسـوة حسـنة لنا جميعًا، هو الهادي إلى الطريق القويم، هو المرشـد إلى الصراط المستقيم... مرشد لا يَضِلّ ولا يُضِلّ، هو الذي سنّ أعدل الطرق وأقومها.

أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، فسار بهم في هذا الطريق المنير، فهو حقيق بأن ينال مثل أجر كلّ مَن سار في هذا الطريق، ومقتضى القاعـدة التـي تقول: "**إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**"[٢٧] أن يُكتب له في سـجله من الأجر مثل أجور من تبعه من أمته ﷺ.

ولن يُطوى هذا السجل بوفاة الرسول الأكرم صاحبِ المقام المحمود ﷺ، بل سـيحرر فيه على الدوام ما لا يُحصَى من الحسـنات والصالحات، وكلما جلّ مقامه اتسعت حدود شفاعته -بمشيئة الله- لتشمل طوائفَ أكبر من أمته ﷺ.

ومن هنا فإنَّه لا بدّ من تناول هذه المسألة من زاويتين اثنتين:

الأولى: إننا بصلواتنا على الرسول الأكرم ﷺ نجدّد عهدنا وميثاقنا معه ﷺ ونزدلف إليه عسى أن نكون من أمته؛ أي إننا نقول له مستشفعين: "لقد تذكّرناك وذكرناك، ودعونا الله وتوسلنا إليه أن يرفع لك ذكرك"، وصلواتنا

(٢٧) سنن الترمذي، العِلم، ١٤؛ المسند لأحمد بن حنبل، ١٣٢/٣٨.

بنية رفع مقام صاحب المقام المحمود ﷺ تتسع بها دائرة شفاعته؛ فيحظى أناسٌ أكثر بهذه الشفاعة.

الثانية: ودعاء الشخص للنبيّ ﷺ برفع القدر والمقام إن هو إلا وسيلة لدخول ذلك الشخص في حِماه ورعايته ﷺ، فتتسع بذلك دائرة الشفاعة في حق هذا الشخص، ومن ثم فنحن أشدّ حاجةً منه ﷺ للصلاة والسلام عليه، وعندما نلجأ إليه ﷺ فذاك إقرار منّا بوجوده وعظمته وإعلانٌ عن صَغارنا وأننا لسنا بشيء أصلًا، فمثلنا كمثل رجلٍ جلّت دولته في عينيه، فالتجأ إليها مستجدِيًا العون، ونحن كذلك نلوذ به ﷺ ونلتجئ إليه بالصلاة عليه؛ فكأننا بهذا نعرض حاجتنا وحالنا في فقر وعجزٍ وخوفٍ ووجلٍ من يوم عظيم شديد، عسى أن نكون من الناجين.

اللهم اجعلنا ممن يحظى بشفاعة صاحب الشفاعة العظمى ﷺ.

وأزفّ لكم في هذا المقام بشارة جاء بها هذا الحديث: "**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**"[(٢٨)].

(٢٨) صحيح البخاري، الدعوات، ١؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٣٣٤.

خلقُ أمِّنا حواء من ضِلع آدم عليه السلام

سؤال: يقال: إن أمّنا حوّاء خُلقت من ضلع أبينا آدم عليه السلام، ما رأيكم؟

الجواب: لم يحظَ الإنسان بإنسانيته نتيجة تطورٍ ما، بل خُلق خلقًا خاصًّا مستقلًّا، ولم يبلغها بكسبه وترقيه وتطوره من نوع إلى آخر أو نتيجة الانتخاب الطبيعي، بل خُلق بوصفه نوعًا إنسانيًّا، والله تعالى هو مَن خلقه؛ وأصل خلق آدم عليه السلام معجزةٌ وخارق لما اعتدناه مثل خلق عيسى عليه السلام؛ فلا يمكن إيضاح المعجزة بمنطق الأسباب، فقد عجز كل من علماء الطبيعة وأدعياء التطور عن شرح كيفية ظهور الأحياء؛ ولم تقم نظرياتهم على أسس علمية صحيحة، بل على أسس ضعيفة واهية، وصلت إلى حافة الإفلاس لما واجهتها الانتقادات القوية، فكم وكم من الكتب والمؤلفات يمكن مراجعتها في هذا الأمر.

وبحث أي مسألة في عالم الأسباب يجري وفقًا لقاعدة العلة والمعلول، أي "السبب والنتيجة"؛ ووفقًا لهذه القاعدة نقول مثلًا: من الضروري -بعد مشيئة الله تعالى- توفُّرُ شروط معينة لكي تنمو شجرة باسقة من فسيلة صغيرة، كالتربة الصالحة والمناخ المناسب والحيَوية الضرورية والعقدة الحياتية في الفسيلة نفسها، وعند اجتماع هذه الأسباب معًا يظهر ما نطلق عليه "العلّة التامة"؛ وهذه "العلة" أي السبب تؤدي إلى ظهور "المعلول" أي النتيجة؛ أي ستؤدي هذه الأسباب بمشيئة الله تعالى إلى ظهور شجرة من فسيلة وفرخة من بيضة.

الخلـقُ الأول للإنسـان معجزة، ويمكن بحث هذه المسـألة في إطار علاقـة السـبب بالنتيجـة: لنفرض أننـا نريد توليد كائن حيّ مـن كائنٍ حيٍّ آخر، فهيأنا المناخ المناسب لتأمين التناسل بين طائر ودجاجة، وبين فرس وحمـار، فلـن تسـفر العمليـة الأولى عن توالد، وسـيولَد بغل فـي الثانية، أي حيـوان هجيـن لا يتكاثر، فالعلة هنا ناقصة؛ أي هناك قصور في تحقيق النتيجة حسـب قانون السـبب والنتيجة؛ أمّا في البشـر فيولد إنسـان كامل من الرجل والمرأة إن التقى المني والبويضة في الرحم؛ فالعملية هنا تامة، والأسـباب متوفرة، وكل شـيء يجري على أكمل وجه؛ فيتشـكل الجنين بمشـيئة الله وإرادتـه، وينمـو من طـور إلى آخر ثـم يولـد، أي تتحقق هنا النتيجـة الكاملة لاجتماع الأسـباب كلها معًا، ولا جـرم أن الله تعالى قادرٌ على تغيير النتيجة.

هـذا إيضـاح الموضـوع مـن ناحيـة الأسـباب، لكـن إن خـرج الأمر عن تسلسل السبب والنتيجة، والعلة والمعلول، فعلينا أن نؤمن به بالشكل الذي أخبرنا به الله تعالى ورسـوله ﷺ لا على أسـاس التطور أو الانتخاب الطبيعي.

أخبرنا سـبحانه مثلًا بأمر خارق للعادة لا نسـتطيع تعليله أو تفسـيره كخلـق آدم ﵇ مـن دون أب وأم، وخلق عيسـى ﵇ مـن دون أب؛ أي لـو شـاء الله لخلـق أيَّ كائـنٍ مـن دون أب أو مـن دون أمٍّ أو من دون أب وأمّ؛ ولا يمكن هنا تفسير الأمر بالأسباب، فالقرآن الكريم يتحدى ويقول: ﴿**قُلْ سِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾ (سُـورَةُ العَنْكَبوتِ: ٢٩/٢٠)، أنى لنا أن نفسِّر كيف بدأ الخلق من العدم؟!

ومثلـه خلـقُ حـوّاء من آدم ﵉، فهـو معجزة أخرى لا يمكن تفسـيره بسلسـلة الأسـباب الجارية، ومن السـذاجة إنكاره بحجة أننا لا نسـتطيع

تفسيره، فهذا يرِدُ أيضًا في خلق آدم وعيسى عليهما السلام، لقد نسي الناس كيفية خلق آدم وحواء عليهما السلام، فخلق الله تبارك وتعالى عيسى عليه السلام من غير أب فذكّرهم بالخلق الأول من جديد، وقال تعالى ردًّا على السائلين عن ولادة المسيح عليه السلام: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/٥٩)؛ أجل، نسي الناسُ كيف بدأ خلق النوع الإنساني، فكان خلقُ عيسى عليه السلام تذكرة جديدة.

أمّا خلق أمّنا حواء من ضلع آدم عليه السلام، فأعتقد أن المراد إثارة جدل جديد في هذا الموضوع، فلماذا خلقت حواء من ضلع ولماذا من آدم عليه السلام؟

تأملوا أولًا هذا الأمر المهمّ: الأدلة على أن الإنسان من خلق الله تعالى بلغت كثرة وقوة لا يمكن ردُّها، وهذا عينه دليل باهر ظاهر على وجود الله، بل الكون بقوانينه ونظمه ومبادئه كلها ينطق بذلك، بل الجوهر الذاتي للإنسان وعالمه الداخلي وقلبه وسِرّه ولطائفه التي لم تُكتشف بعدُ تشهد بذلك، هذا عدا آلاف الأدلة القاطعة على وجود الله؛ وكلّ من استمسك بشيء من هذه الأدلة يحاول الوصول إلى شاطئ السلامة سواء في ذلك الفلاسفة والمفكرون وعلماء أصول الدين، فما بالك إن اجتمع ألف دليل، فلك أن تتصور قوة الاستدلال ودرجته.

ويحاول اليوم بعض المنكرين والملحدين غض الطرف عن هذه الأدلة كلها وبحْثَ خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام لاتخاذه مستندًا للإنكار والإلحاد بزعمهم، يصف المرشد الكبير بديع الزمان رحمه الله أمر هؤلاء فيقول:

> "وا أسَفاه! إن وجودَ النفس عمى في عينها، بل عينُ عَمايتها، ولو بقي من وجودها قدر جناحِ الذبابة لغدا حجابًا يحول دون رؤيتها شمسَ الحقيقة، فقد شاهدتُ أن وجود النفس هذا يجعلها

تنكر قلعة عظيمة مرصوصة بالبراهين القاطعة إن رأت في صخرةٍ صغيرة منها ضعفًا وهشاشة، فتنكر وجود القلعة بتمامها. فمن هنا تعلم درجة جهلها الناشئ من رؤيتها لوجودها" [٢٩].

أجل، فما أفدح قصور هذه النظرة العوراء! فالإنسان والكون زاخران بآلاف الأدلة على وجود الله تعالى وإثبات هذه الحقيقة.

"الخلق من ضلع" ثبت في الصحيحين وفي مسند أحمد بن حنبل، وورد أيضًا في سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/١)، فالضمير "ها" يعود للنفس لا لآدم، ونرى هذا أيضًا واضحًا في آية أخرى: ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٣٩/٦).

استوقفني هذا التعبير؛ إذًا لم تُخلَق حواء من آدم، بل من ماهية آدم، وهذا دقيق جدًّا؛ فشخص آدم غيرُ ماهيته، فالإنسان مثلًا طوله كذا ووَزنه كذا وملامحه كذا، ثم إن له ماهية وظاهرًا وباطنًا وفكرًا ودرجةَ صلةٍ بالله قربًا أو بُعدًا؛ فإذا تناولنا الإنسان من زاوية ذاته، فينبغي تناوله من الوجه الثاني أي الماهية، فالأول هيكل ليس إلا؛ فذات الإنسان ونفسه بهذا المعنى شيء، وجسده شيء آخر، والقرآن عند موضوع خلق حواء قال إنها خلقت ﴿**مِنْهَا**﴾ أي من "نفْس" آدم لا من آدم.

والحديث الوارد في هذا خبر آحاد، فلزم بيانه بالآيات، وهذا أصل مهم من أصول تفسير الآيات والأحاديث؛ فالآية من كلام الله، فهي متواترة، فوجب ردّ الحديث إلى الآية لتبيين إبهامه، ومن المهم ملاحظة السياق والسباق في الحديث، فيجب ملاحظة هذا الأمر.

---

(٢٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسي: المثنوي العربي النوري، ص. ١٧٠ (ذيل القطرة).

فالرسول ﷺ يقول: "**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**"(٣٠).

فسبب ورود هذا الحديث أو مناطه تربية النساء وسياسة البيت؛ أجل، فإن تعجلت واستعجلت في إصلاح المرأة وقع الشّرخ، وإن تغافلتَ عنها بقيتْ على ما هي عليه. يشير الرسول ﷺ وهو يشرح هذا الموضوع إلى أمر مهم، وهو أن المرأة أكثر قابلية للاعوجاج من الرجل، وأكثر رقة وقابلية للانكسار، فليس المقصد الأصلي للحديث الشريف أنّ حواء خُلقت من ضلع آدم، بل أن المرأة إن تُركت كما هي بقيتْ عوجاء، وإن حاولت تقويمها بسرعة انكسرت.

وللبيان بهذا الأسلوب أسرار، فالرسول ﷺ يقول: "**خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ**"، و"**مِنْ**" لغة قد تأتي للتبعيض، وقد تأتي للبيان؛ وقد أجمل الرسول ﷺ في حديثه فالمعاني كلها محتملة.

ومثل هذا كثير في الحديث الشريف، مثلًا يقول ﷺ: "**لَيْسَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ**"(٣١)؛ دلَّ الحديث أن لكل إنسان شيطانًا، وللحيوانات أيضًا، ففي حديث آخر: "**لا تُصلّوا في مبارك الإبل، فإنها من الشياطين**"(٣٢)؛ أي كأنها فضلة من شيطان، أو قل: بعض الحيوانات تتصرف أحيانًا تصرفات الشياطين؛ إذن يجلب الحديث انتباهنا إلى التصرف الشيطاني، فعندما نرى قاسي القلب بليد المشاعر نقول عنه: "كأنه خلق من حجر"، ولا شك أننا لا نعني أنه خلق من حجر، بل هو

(٣٠) صحيح البخاري، الأنبياء، ١؛ صحيح مسلم، الرضاع، ٦٠.
(٣١) المسند لأحمد بن حنبل، ١٦٦/٤.
(٣٢) سنن أبي داود، الصلاة، ٢٥.

مجاز عن قسوة قلبه وتبلد شعوره وفقره العاطفي، وعندما نقول "فلان شيطان" فالمراد أنه يضلل الناس ويغويهم ويجرّهم إلى طريق الفساد.

ومعنى الحديث في ضوء معنى الآية التي تلوناها: المرأة خُلقت من ضلع آدم ﵇، أي المرأة جزء من الرجل، أي من جنسه، أي من خواصه الوراثية نفسها، لو لم يكونا من جنس واحد لَما أمكن أن يتناسلا، فتمام الآية: ﴿**وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/١)؛ أي لو كانا جنسين مختلفين لما حدث بينهما تناسل، فوجب أن يكونا من جنس واحد.

وكلمة "الضلع" في الحديث تفيد معنى الميل للعوج وسهولة الاعوجاج وسرعته أكثر من معنى الاعوجاج نفسه، فما أبلغ اختيار الرسول الكريم ﷺ لهذا التعبير، أي أنّ المرأة أكثر قابلية من الرجل للاعوجاج، وهذا لا جدال فيه، فحال العالَم شاهد على هذا، فأهل الغفلة والضلال يستخدمون المرأة مِصيَدة لإغواء الرجل، وقد ابتذلت المرأة في القرن العشرين ابتذالًا لم يشهده أي عهد وأي عصر. فامتهانها في أكثر الإعلانات ابتذالًا لِيغدو الإعلان جذّابًا له مغزى كبير وعميق؛ فهذا من قصورها وضعفها كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف، فتجد من يسوّغ امتهان صور المرأة في إعلانات إطارات السيارات وأثاث حوض الاستحمام ولوازم الحمام، وفي إعلانات اللحم المقدد والشطيرة؟ فما العلاقة بين المرأة وهذه الأشياء؟ فالرسول ﷺ أخبرنا أن المرأة خلقت من أعوج ما في الرجل، وإنّ في استخدام المرأة لا سيما اليوم أداةً للانحلال والانحراف بيد أهل الضلالة والغفلة لتأكيدٌ لهذا المعنى؛ فكأن المرأة اتخذت رمزًا لأكثر جوانب الجنس الإنساني اعوجاجًا، ولا شك أنه لا أجمل ولا أعذب في بيان هذا الأمر من هذا التعبير.

أمـر آخـر: جاء فـي فصل "التكوين" فـي التوراة[٣٣] صراحـةً أن حواء خلقـت من جنب آدم عليه السلام، ولا محل للاسـتغراب مـن أخذ جزء من آدم -وهـو بيـن الطين والماء- لتخلـق منه أمّنا حواء، فالخلـق الأول معجزة، وآدم وحواء عليهما السلام أثر من آثار هذه المعجزة.

ولا يمكـن للعلـم أن يدلـي بدلـوه هنـا في شـأن الخلـق الأول، فهو هنـا أصـم وأبْكم وأعمـى؛ فالخلق الأول معجزة فنسـلم بكل مـا قاله الله تعالى، ولا نسـلم بهذا تسـليمًا أعمى، بل نستشـعر في كل شيء من الذرة إلى الكون كله عِلْمَ الله المحيطَ بكل شـيء وقدرتَه القاهرة وإرادتَه النافذةَ من نوافذ العلوم والفنون فنسلّم به بعقولنا وقلوبنا.

والله تعالى أعلى وأعلم، والحقُّ هو ما وَرَدَ في كتابه المبين.

---

(٣٣) باب: ٢، الآية: ٢١-٢٣.

"وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا"

سؤال: ما تفسير هذه الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾؟

الجـواب: وردت مسـألة تعليم الأسـماء لآدم عليه السلام في سـياق الحديث عـن خلافة آدم في الأرض واستفسـارِ الملائكـة ببصيرتهم النافذة قائلين: ﴿**أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا وَيَسْـفِكُ الدِّمَـاءَ**﴾ (سُـورَةُ البَقَـرَةِ: ٢/٣٠)، أي إن في الإنسان عناصر جِبليّة من أصل جوهره تشير إلى أنه سيُفسد في الأرض ويسـفك الدماء، وكأنهم قالوا: يا ربنا إذا ما نظرنا إلى معدن هذا الإنسـان يتبدى لنا أن فيه قابلية لأن يكون سفاكًا للدماء مُستنقعًا للنفاق.

والملائكـة مَثَلهـم كمثـل الذين يسـتدلون بسِـمات الوجـه على روح الإنسـان ومعدنـه، فـرأوا مـا ذُكِـر فـي المحيّا المعنـوي لسـيدنا آدم عليه السلام؛ إذ كان ذلـك كلّـه محرّرًا على وجه بشـرٍ خُلِق من طين الأرض، وكانت فيه خصائص أخرى من أثر النفخة الإلهية، إلا أن الملائكة لحظت الشِّقَّ الأول.

أجـل، فـي الإنسـان جانبان: التـراب، والنفخـة الإلهية؛ ففـي التراب الشـهوات والأهـواء والأطمـاع والغـل والحقـد؛ وبالنفخة الإلهيـة خُلِقَ في أحسـن تقويـم ومُنح قابلية ليرقى إلى أعلى علييـن، وليتبوأ مكانة بين ساكني الملأ الأعلى.

لحظت الملائكة الجانبَ الجسماني في آدم عليه السلام، فاستفسروا: ﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ (سُـورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٣٠)، وعلَّم **الله** آدمَ الأسـماءَ كلها من حجر وشـجر ومدر ليمتحن الملائكة، ولما كان تعليم الأسماء وحدها لا يعني شيئًا علَّمه **الله** مُسمَّيات هذه الأسماء إجمالًا.

لكل اسم مُسَمًّى، وكل ما في الوجود عبارة عن واحد يتشكل من اسم ومسـمّاه، فتعليم الأسـماء لآدم ﷺ معناه أنّ الله تعالى علّمه مدلول تلك الأسماء أيضًا، أمَّا سيدنا محمدٌ ﷺ فعلَّمه الله تفصيل ذلك المجمل؛ أجل، علّم الله آدم ﷺ فهرس كتاب الأشياء، وفصّله لرسول الله ﷺ.

وأشـار الحقّ ﷻ بمسـألة "تعليم الأسـماء" إلى أن آدم ﷺ هو خليفة الله فـي الأرض؛ خلقـه مـن عناصـر من أديـم الأرض، فسُـمي آدم ﷺ، فهـو خليفـة الله ﷻ فـي الأرض وصاحب مقام الجمـع -كمـا قال محيي الدين بن عربي-؛ ورؤيةُ الأشياء بعدسة آدم تُجلِّي وحدة الوجود في رأي ابـن عربي، والإنسـان هو محلُّ نظر الله في الأرض وجامـع أسـمائه، فهو صاحب مقام الجمـع لا مقام الفرق، وإلى هذه المنزلة الخاصَّة التي تبوّأها آدم ﷺ أشارت مسألة "تعليم الأسماء".

ومعنـى هـذا أنَّ الله تعالى ألهمَ آدم ﷺ خلاصـة العلوم كلّها، فتعلم آدم ﷺ بالوحـي زبدة الحقائق الدينية ومجمل العلوم الطبيعية من كيمياء وفيزيـاء وفلك وطـب وغيرها، أي مبادئ هذه العلوم وأسسـها وقواعدها الأساسية، لا تفصيلها بكل دقائقها.

أجـل، ربّما كان تعليمُ هذه الأشـياءِ المجملة شـيئًا مـن الرموز، لكن هـذا القدر منها عظيم جدًّا بـلا ريب حتى إنّها عُرضت على الملائكة فلم تعرف عنها شيئًا.

ويمكن تفسير عدم علم الملائكة بها هكذا:

عالَـم الأجسـام مغايـر لعالـم الأرواح تمامًا، والبشـر كائـن من عالم الأجسام من ناحية، وكلّ جزء من كتاب الطبيعة الذي نشاهده هو من هذا العالم؛ ولا يتأتّى معرفة المشـاهد الجسـمانية معرفة تامة لغير الجسمانيين ولـو مـن وجه، فمثلًا: هناك أبعاد للرؤية والسـماع في العالم الجسـماني،

وهـذه الحـواسّ خاصّـة بالعالم الجسـماني؛ أمـا الملائكة الكـرام فأبعاد الرؤية والسـماع عندهـا مختلفة جذريًّا لأنها موجـودات روحانية؛ فبعض الأجسـام اللطيفـة حتـى الجنّ تتمثـل في صـورةِ كائنٍ جسـمانيّ، وتتخذ جسـده عدسة لترى منها عالم الشهادة، ولتشـاهد بعينه العالم الجسماني؛ فماهيـة هذا العالم فـي نظرك غيرها في نظر الملائكـة والروحانيين؛ ترى الملائكةُ الكرام الربيعَ والصّيف والزهور والحشـرات والهوامّ بخلاف ما تراها أنت، فنظرُ الملائكة له أبعاد أخرى؛ لذا تشـاهد الأشياءَ على خلاف ما تراها به وتشعر وتتمتع به أنت.

وقـد تكـون الأسـماء التي علّمهـا ربنـا ﷻ لآدم ﵇ حقائـق مجملة عن الآيات الكونية والشـريعة الفطرية والقوانين السـارية في الكون، ولما كانت الملائكة ذات أجسـام لطيفة لا يمكنها معرفة هذه الأشـياء التي هي من خصائص الأجسـام الكثيفة، قالت: ﴿**سُـبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٣٢).

وعند الجمـع بين هاتين المسـألتين يتبين أنّ الحقّ تبارك وتعالى علّم آدم ﵇ الحقائـقَ المجملـة فـي الكون، ثم نضج هذا العلمُ شـيئًا فشـيئًا حتـى بلـغ الكمال فانتهى إلى سـيّدنا محمد ﷺ صاحـب الكمال والمقام المحمود، فكان محمدًا وأحمد ومحمودًا وحامدًا؛ فهو مظهر لكلّ شـيء يُعلَّـم، أي أصبح بكل ما أوتيه هاديًا وسـراجًا منيرًا لسـبلٍ تبلـغ بسـالكها الحمدَ والثناء، ولم يُؤْتَ أحد حتى الآن مثل ما أوتي ﷺ؛ وهو مثل القرآن الكريم جاء ليكون مظهرًا للأسماء الإلهية كلها، وهو بين الأنبياء كالفاتحة بين سوَر القرآن.

وكان آدم ﵇ أول مظهر للآيات السـبع في سـورة الفاتحة، ومدارُ الآيات السـبع على سـبع صفات قدسيّة، وتلمح الآيات السبع الصفاتِ

السبعَ من مشكاة اللدنّية، وتكشف عن حقائق سبع. وهذا الأمر يمثله الإنسان تمثيلًا كاملًا في الصلاة، فيسجد على سبعة أعضاء، أما النبي ﷺ فهو مظهر للفاتحة التي فُصلت آياتها في القرآن الكريم بأكمله، وهذا يعني أن الفاتحة فُصلت بالنبي الأكرم ﷺ؛ فسُمي النبي ﷺ "أحمد"، وأمته "الحمّادين"، ولواؤه الذي سيجتمع الناس يوم القيامة تحته ليستظلوا بظله "لواء الحمد".

أجل، ألهم الله تعالى النبي ﷺ وعلّمه الأسماء تفصيلًا، فما أسعده وأسعدنا!

وفي مسألة تعليم الأسماء إشارة أيضًا إلى العلوم الطبيعية؛ فهذه الآية كما يقول الأستاذ النُّورْسِي رحمه الله تعبّر -من حيث جامعية ما أودع الله في الإنسان من استعدادات- عن كل ما ناله من الكمال العلمي والتقدم الفني، ووصوله إلى خوارق الصناعات والاكتشافات، وهذا التعبير ينطوي على رمز رفيع دقيق، وهو: أنّ لكل كمالٍ ولكل علمٍ ولكل تقدمٍ ولكل فنٍّ -أيًّا كان- حقيقةً سامية عالية، وتلك الحقيقة تستندُ إلى اسم منٍ أسماء الله الحسنى، وإلا فهي ظل ناقص مبتور باهت مشوش.

فالهندسة -مثلًا- علم من العلوم، وحقيقتُها وغاية منتهاها هي الوصول إلى اسم "العدل والمقدِّر" من الأسماء الحسنى، وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذينك الاسمين بكل عظمتهما وهيبتهما في مرآة علم الهندسة.

والطب أيضًا علم وفن، ولا يتأتى إدراك حقيقته وكماله إلا بالاعتماد على اسم الله "الشافي"، وبمشاهدة تجليات رحمته في صيدليته العظيمة على سطح الأرض، وبمعرفة أن الشافي الحقيقي هو الله عز وجل.

وهكذا سائر العلوم والفنون، يُعرف مداها بقدر إسنادها إلى اسم من الأسماء النورانية لله تعالى، وبالأحرى استشعار استنادها إلى أسماء الله؛ وإلا فلا يصل الإنسان في ظلمات النظريات والفرضيات إلا إلى الأوهام.

والله أعلم بالصواب.

الخضر عليه السلام

سؤال: هل يمكن لقاء الخضر عليه السلام؟

الجـواب: تتعمـق معـارف الإنسـان على قـدْر سـبره للقضايـا الفكرية ومصادرها، ويرقى في معارج عالم القلب والروح على قدر تأمّله وتبحره فيما يتعلق بهما، ويبلـغ من أعماق المعرفة ما يبلـغ على قَدْر خُبْره بالقضايا العلميـة واكتشـافه كلّ يوم لمركَّب بِكْرٍ ومعـارف جديدة؛ وفوق هذا كلِّه، فمن لا يشغله إلا رضا الله تبارك وتعالى يزداد عمق صلته بالله تعالى.

ومـن وثّـق عُـرى صلتـه بـالله جل وعلا خلـص إلـى نتائـج تفـوق كل مـا يمكـن أن يبلغه غيره بالطرق الأخـرى؛ فقد يجود عليـه العليم الخبير بفتحٍ علمي من لدنه بقليل من الجهد وشـيء من العلم يُكلَّل، فيكتشـف ما يتعذر عليه اكتشـافه وإن قضى سـنين في العمل والبحث، وتكفيه قراءة كتـاب أو مقـال مـرة واحـدة ليـدرك آلاف المعاني؛ ومدى علـومِ الظاهر إنَّما يحدِّده مدى سـعي المرء فيها، وهو عينه المدى الذي يشـغله مِن قلبه وعقلـه؛ لكـن توثيـق العلاقة بالله يُكسِـب المرءَ معارفَ مـن علوم الباطن ونتائج من علوم الظاهر؛ أجل، بينما الأول مشغول بعلوم الظاهر فحسب نجد الآخَر قد عبَر حدود عالم الباطن وبلـغ شأوًا يمكّنه من إدراك الظاهر.

وفي عصرنا سادت المادة، فما عاد يُبحَث شيء إلا بمقاييس ومعايير ماديَّـة، ومن ثم اسـتَوحش أكثرُنا مـن الروحانيات وحيل بيننـا وبين القيم المعنوية؛ بل أتى انسحاقنا تحت المادة على الروحانيات فجعلَهَا أَثَرًا بعد عِين؛ نسأله سبحانه ونبتهل إليه أن يجعلنا من أرباب القلوب.

فمـن وثـق عُـرى صلته بـالله ﷻ قد يُطلعـه الله على الغيـب، فيجتمـع بالملائكة الكرامِ عليهم السلام، ويتصلُ بالجنِّ والروحانيين، ويرى الخضر عليه السلام، بل يرقى إلى "مقام الخضر"(٣٤).

أجـل، كلّ هـذا ممكـن لمـن وثَّـق صلتـه بـالله، وتجرد عـن الصورة والشكل، واستغل عتاده الروحي كله للوصول إلى الله.

تراود بعضَ الأشـخاص أفكارٌ مثل: هل لنا أيضًا أن نجتمـع بالخضر عليه السلام؟. إن هذا منشؤه الإدراك المحدود للمسألة؛ فيمكن لأي فرد أن يرى الخضـر عليه السلام، ومـن يدري فقد يصلـي معكم، أو يوجد في مسـاجدنا من كان سـيره وسـلوكه الروحاني في ظلّ سـيدنا الخضـر عليه السلام، بل قد يكون بينكـم ملائكـة كـرام، وروحانيّـون يـرون عالم الشـهادة بأعينكـم، ولعل بينكم مخلوقات لطيفة تشـارككم في مشـاعركم... كل هذا ممكن لكنكم لا تشـعرون بهم؛ اللهم مُنَّ علينا بانكشـاف في الأمور المعنوية كما مننتَ علينا به في الأمور المادية.

وقد أخبرنا الأصفياء ذوو الأرواح الزاكية أنهم اجتمعوا بالخضر عليه السلام وبالملائكة الكرام والروحانيّين، وهؤلاء يخشون الله حق الخشية وترتعش قلوبهـم من خشـيتهم لربهم وتقواهم، فيسـتحيل أن يذكروا أمـرًا موهومًا لا أصل له؛ إن قولهم حق بلا ريب، ونحن نصدّقهم يقينًا.

وقـال أهـل الكشـف والشـهود: الخضر عليه السلام حـيّ؛ ورغـم أن بعض العلماء الأجلاء -مثل الإمام البخاري- يقولون بوفاته إلا أن معظم الأئمة والفقهـاء يـرون أنه حي، إذًا يمكن أن يراه بعـض الناس حقيقة ويجتمعوا

(٣٤) "مقام الخضر عليه السلام" على حد قول الأستاذ بديع الزمان: "إن في مقامات الولاية مقامًا يُعبّر عنه بـ"مقام الخضر"، فالولي الذي يبلغ هذا المقام يجالس الخضر عليه السلام ويتلقى عنه الدرس، ولكن يُظن أحيانًا خطأً أن صاحب هذا المقام هو الخضر بعينه". (بديع الزمان سعيد النُّورْسي: المكتوبات، المكتوب الأول، الطبقة الثانية من طبقات الحياة، ص. ٥)

بـه أو بظلّـه؛ وإنمـا يجتمـع بالخضـر ﷺ من بلـغ مقـام الخضر، وماتت نفسه، وغلَب هواه، مثال ذلك ما ذُكِر في مناقب "يونس أَمْرَه" أنه كان يأتي إلى بيت شيخه "طَابْطُوقْ" بحطب مستقيم فحسب، فلما قيل له: "لم تتخير الحطب المستقيم دائمًا، أما في الغابة حطب معوج؟"، قال: "بيت طابطوق لا يدخله إلا المستقيم ولو كان حطبًا".

أجـل، بالاسـتقامة فـي السـير تبلـغ الهدف، فاسـتقم كالسـهم تبلـغ ما تريد.

وذات مرة اختبره طابطوق (وقد وقـع هذا لغيره مثل إبراهيم بن أدهم البلخـي، ومولانـا جلال الديـن الرومي، والشـمس التبريـزي): قدم أحد تلاميذه ذات يوم من عين يسـتقي منها الماء، فلما مر بيونس نخس رجليه ووركـه بحديـدة في دلوه وكأنه ينخس دابّـة فأدماه؛ فلم ينبس يونس ببنت شـفة، فلما بلـغ المنزل قال: "هذا أمر تركناه في قريتنا"، أي أعرضت منذ أن خرجت من قريتي عن التفكير في نفسي والضجر من إيذاء الناس لي، فلما رجـع التلميذ قال له الشيخ: ماذا قال؟

قال التلميذ: قال: "هذا أمر تركناه في قريتنا".

فقال الشـيخ: ما زالت نفسـه تشـغله، لم ينضـج بعد، فليجاهدها أكثر وأكثر.

وما أجمل قول يونس:

"على الدرويش أن يكون بلا يدٍ لمن ضربه
وبِلا لسان لمن شَتَمَه
وبلا قلب (حتى لا يغضب)
وإلا لن تستطيع أن تكون درويشًا".

هكـذا فليكن المرشـد والداعية في هذا العصر، يكـفُّ كفَّه عمّن آذاه ولسانَه عمن شتمه، وعلى طالب القرآن أن لا يُثير شيءٌ حفيظتَه، فلا يستاء ولا يمتعض، وإلا فليس من طلاب القرآن، فإن شئت أن تجتمـع بالخضر عليه السلام فتَخَلَّ عن نفسك أولًا.

للنقشـبندية أربعة أسـس يعبـرون عنها هكذا: إن الطريقة النقشـبندية قائمة على ترك أربعة أشياء:

ترك الدنيا، وترك الآخرة، وترك النفس، ثم ترك الترك.

فوجـب فـي هذا الزمان تـركُ كل رغبة ولو كانـت الاجتماع بالخضر عليه السلام.

زواج الأقارب

سؤال: ما قولكم في دعوى لحاق الضرر من زواج الأقارب؟

الجواب: أولا: الأمراض المتوقعة من زواج الأقارب هي:

الأمراض الوراثية؛ وهي أمراض تنتقل من جيل إلى آخر وراثيًّا، وأكثر ما تظهر لدى أبناء أزواج بينهم قرابة قريبة؛ فغالبًا ما يتوارثون عن الجد المشترك أكثر من "جين" يحمل مرضًا وراثيًا؛ وتنتقل الصفات الوراثية من مادة تسمى "*DNA*" تتجمع في وحدات تحمل معلومات منظمة لتطور الكائن الحي اسمها "الجينات".

ويُورِث نقص الإنزيمات بعض الأمراض الوراثية، فالتفاعلات الكيموحيويّة لا يتحقق منها شيء إلا بوجود الإنزيمات، علمًا أنّ المركبات والجزيئات كلّها لها تسلسل محدّد، فلا توجد مادة تتحول إلى منتج مباشرة، بل تمرّ بسلسلة متنوعة من المركبات، وتضاف مواد جديدة لكلّ مركب أو تُستخرج منه حتى يتكون المنتجُ المطلوب.

وثمة نحو ٢٨ مرضًا وراثيًّا تَبين أنها ناتجة عن نقص في الإنزيمات، ويُعتقد أنها وراء التخلف العقلي مثل المنغولية والفينايلكيتونوريا (*Phenylketonuria*)، وبعض أمراض الدم مثل فقر دم البحر الأبيض، وبعض الأمراض الوراثية مثل بِيْلة سِسْتِينِيّة (*Cystinuria*)، والجلاكتوسيميا (*Galactosemia*).

ثانيًا: لم يحض الإسلامُ على زواج الأقارب وإن أجازه في غير مَن يحرم نكاحُهم، أما الأقارب الذين يحرُم نكاحُهم فيشكّلون كَمًّا كبيرًا.

ليـس الضـرر في زواج الأقارب بل في أمـراض الأبوين الوراثية التي تزداد مـع الزواج وتظهر في الذرية؛ فلو أن سلالةً أو عشيرةً أو قبيلةً تحمل مرضًا، وتزوج منهم اثنان يحملان المرض نفسه يظهر هذا المرض؛ يعني أن الطفل يرث عن والديه مرضًا كان مكنونًا فيهما ولم يظهر؛ وهل يختلف الأمر إن كان الأزواج الذين يحملون المرض غرباءَ، هذا من الشرق وذاك من الغرب؟ لا فرق، فالخطر كل الخطر في اجتماع زوجين يحملان مرضًا تظهـر أعراضُـه علـى الطفل بقوّة، أيًّـا كان المرض وحيثمـا كان من قرابة أو من غيرها.

فالذي على الأطباء إذًا هو منع زواجِ من يحملان مرضًا وراثيًّا يُتوقـع ظهـوره في الطفـل، فالحيطة والحذر فـي زواج مشـرقيّ بمغربيّة كالحذر فـي اثنين من قبيلة أو عشـيرة واحدة، فقد يُصابان بالمرض نفسـه فيُمنيان بالنتيجة السـيئة نفسـها؛ فمن الإفراط إذًا منعُ زواج غير المحرم نكاحهم مـن الأقـارب مطلقًـا، ومـن قال بذلـك مفترضًا أمـرًا ما فإن تطـور العلم سيُخالف ظنَّه.

والمؤسـف أن مـن العلمـاء المتدينين أيضًـا من تناول المسـألة على عجـل كما يفعـل الفرَضيّون، ولم يُعـنَ ألبتة بمناط الحكـم الطبي، فقال: "حَرّم القرآن الكريم زواج الأقارب مطلقًا"، فناقض القرآن الكريم، قال الله تعالـى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّـا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُـكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْـكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَـاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَـا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سُـورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٥٠).

والتشريع العملي يثبت أن نبينا ﷺ وصحابته الكرام ﷺ لم يتحرجوا من زواج الأقارب غير اللائي حُرِّم نكاحهن في آية المحرمات، فتزوج ﷺ زينب بنت جحش ابنة عمته، وزوَّج ابنته الكريمة السيدة فاطمة من سيدنا علي رضي الله عنهما وهي من بنات عمومته... وأمثلته كثيرة.

وماذا في الزواج بين أبناء عشيرة سليمة البنية؟ فلعل هذا يحافظ على بنيتها المادّية والشخصية والروحية والصحية، ويُقال هذا هو سر سلامة الأجيال في داغستان حتى اليوم، هذا جعلهم بفضل الله وعنايته وقدَرِه أصحّ وأنشط وأطول عمرًا.

فمن يودّ أن يكون معافًى قويًّا نشيطًا في نسله وسلالته، فلا ريب أنه سيتخير أكثر العائلات صحة وسلامة، فإن كانت قبيلته كذلك فلم لا يتزوج منها؟

والخلاصة أن الخطر في الزاوج يكمن في أمراض قد يُصاب بها النسل سواء كان الزواج من الأقارب أو الأباعد، وأرى أن هذا هو ما ينبغي عدّه مناطًا للحكم، وإلا لقال قائل: كيف يُعالج القرآن الكريم حقير الأمور، ولا يعبأ بعظيمها؟! فهذا نقيض مقاصد القرآن الكريم كتابِ التوازن، فهو لم يُغفل ذكر أقلِّ شيء ينفع وأقلِّ شيء يضرّ ولو نقطة خمر حرّمها.

وقد عدّ القرآن الكريم المحرمات من النساء بجلاء عدًّا لا لبس فيه، فقال: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾

(سُورَةُ النِّسَاءِ: ٢٣/٤)؛ وقال في آية أخرى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٥٠/٣٣).

وتشريع الزواج بضوابطه الصحية لا يقتضي إكراه الناس على الزواج، فللإنسان الزواج بغير المحرَّمات، إذ لا مانع، ولكن إن أثبت الكشف الطبيّ أن لهذا الزواج أضرارًا صحية، فهذا يقتضي منع الزواج، بل إن المنع آنذاك مصلحة وأمرٌ إنساني.

والله أعلم بالصواب.

الاتصال بالجن

سؤال: ما الجن؟ وكيف يحضَّر؟ وهل تجوز الاستعانة به في العلاج والعثور على المفقود؟ وما حكم الشعوذة؟ هل تُحظر ممارستها؟ وهل عُرف بها أحد من أهل العلم؟

الجواب: "الجن" مشتق من "جَنّ"، ومنه "الجَنّة"، و"الجِنّة"، أما لفظ "مجنون" فهو اسم مفعول، وكأن معناه "من مسّه الجنّ". والجِنّ لغةً: المستور؛ أي الخفيّ الذي لا يُرى، فهو ليس خفيًّا في ذاته بل هو خفي عن أعيننا أو عقولنا، وللجن دور فعال في الجنون والله أعلم.

ومسألة وجود الجنّ وكذا الروح والملائكة فيها جدل كبير منذ أمد مديد.

لقد شاهدهم الأنبياء وقابلهم الأصفياء والتقى بهم ملايين من أهل الكشف والتحقيق، فلا ضير في إنكار قلّة من الماديين لا يعترفون إلا بالمادة؛ بل إن إنكارهم مكابرة وعناد لا مسوِّغ له، لا سيما أننا في عصر نسلّم فيه بوجود أشياء كثيرة لا نراها، وفي وقت غدت فيه مسألة الجن مثار اهتمام الملايين في أنحاء العالم كافّة، فشغلت عقول أهل العلم والمعرفة.

ما حجة من ينكر وجود الجن، ولماذا يُنكر ولا يستسيغ؟ فهل يا تُرى كل موجود يُرَى فاعترضوا لأنهم لا يرون الجن فحسب؟

نعلم أننا لا نرى إلا ٤-٥ بالمليون مما يُعرض على أنظارنا في عالم الشهادة؛ يعني أنَّ أمامنا مليون مخلوقٍ مِن أنواعٍ شتَّى ولا نستطيع

أن نرى منها إلا أربعًا أو خمسًا، ولا نستطيع أن نرى غيرها، ثم نحاول التعرف على جزء مما لا نراه بالمجهر، فنرى مثلًا ما في العالم المكبر بالتليسكوب، والمصغر بالميكرسكوب، وعوالم أخرى بأشعة إكس ونحوها؛ وقد تُكتشف لاحقًا أشياء وتتاح للبشر وسائل جديدة يُتعرف من خلالها على أشياء كهذه.

يقول أحد العلماء: "في كلِّ اكتشاف برهانٌ على وجودِ عالمٍ كبير لم يُكتشَف"؛ فعالمُ الشهادة إن هو إلا حجاب شفاف لعالم الغيبِ الذي لا يُرى، ووراء هذا الحجابِ الجنّ والملائكة والروحانيات، فقد يُطّلَع على ما وراءه مباشرة أو بواسطة على قدر معرفتنا بذاك العالم.

وللمسألة وجه آخر: الجن كالروح، قانون ذو شعور، يشبه القوانين الكونية مثل قانون الجاذبية الذي به تدور الكرة الأرضية حول الشمس، فالأرض تدور دوران الإلكترونات، وعند دورانها حول الشمس تجذبها الشمس، وقانون الجذب المركزي هذا يقابله قانون الطرد المركزي، وكلها قوانين لها وجود نسبي واعتباري.

قد تقول: الشمس مثلًا كتلة والأرض كتلة، والكتلة الصغيرة تدورُ حول الكبيرة، ولا نرى شيئًا آخر، إذًا ليس هناك شيء آخر.

والجواب: لو لم يكن هناك شيء آخر، فما تفسيرُ هذا إذًا؟ والسؤال هو هو سواء قلتم إنها "جاذبية نيوتن" أو "نسبية أينشتاين".

وللنمو قانونٌ وجودُه نسبيٌّ واعتباريٌّ كسائر القوانين، فمثلًا عندما نحلل بذرة نلاحظ أن فيها عقدة حياتية، يتولّد منها الرّشَم، ثم ينمو فيصبح فسيلة فساقًا فشجرة، لكن لا بدَّ أن يكون النبت المتولِّدُ من جنسِ هذهِ البذرة، هذا هو قانون النمو، ويتعذر الإنبات دون وجود هذا القانون، فمثلًا لو غرسْنَا حجرًا لن نشهد أيَّ نمو أو تطوُّرٍ لانعدامِ هذا القانون.

هـذه قوانيـن وضعهـا الله ﷻ، والجـنّ والـروح والملائكـة ماهيتهـم تشـبه ماهية هـذه القوانين، والفرق: أنّ قانون الجاذبيـة بلا عقل ولا إرادة ولا شعور؛ أما الجنُّ والروحُ والملائكةُ فلهم عقل وإدراك وشعور، ولهم وجـودٌ خارجـيٌّ حقيقـيٌّ لا نسـبيٌّ واعتباريٌّ، ويعرِّف الأسـتاذ النُّورْسِـي الروحَ بأبلغ أسـلوبٍ يمكن أن نطالعَهُ وأشـملِه وأوجـزِه، فيقول: "الروح قانون أمريّ ذو شعور"، فيكاد يستحيل أن تأتي بهذا الإيجاز في تفسير آية ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٨٥)، يقول:

"الـروح قانـونٌ أمـريٌّ، حـيّ، ذو شـعور، نورانـيّ، ذو حقيقة جامعـة، مهيَّـأة للاصطبـاغ بالماهية الكلية الشـاملة، وقد أُلبِسـت وجـودًا خارجيًّـا، ولو أَلبَسَـت قـدرةُ الخالق القوانيـنَ الجارية في الأنـواع وجودًا خارجيًّا لأصبح كلٌّ منهـا روحًا، ولو خلع الروحُ لباسَ الوجودِ الخارجيّ، واطَّرح الشعورَ، لأصبح قانونًا باقيًا"(٣٥).

وهذا التعريف وافٍ بكل ما هو من ماهية الروح.

الـروح قانـون كتلك القوانين التي نسـلم بوجودهـا جميعًا من أصغر العوالـم إلـى أكبرها، لكـن تمتاز الروح بالشـعور؛ دع عنـك هذا، فبعض العلماء لما اطلعوا على ما في النبات والشجر من استجابةٍ للمنبِّهات وردٍّ عليها، وإِلْفٍ للبيئة ادَّعَوا أنّ لها شعورًا.

وأريـد أن أقـدم لكم خلاصـةَ مقالٍ في هذا نشـرته إحدى المجلَّات، يقول الكاتب:

"قناعتـي أن النباتـات كالقمح والشـعير لها شـعورٌ أيضًا، فلا يمكـن أن يصـدر عنهـا ما يصـدر من حركات وهي بـلا عقل ولا إدراك ولا شـعور؛ فالقمح مثلًا -وهو برعـم- يشـقّ الأرض وكأنه يتأمّل ما حوله، فإن كانت الأجواء معتدلة والرطوبة كافية والشمس

(٣٥) بديع الزمان سعيد النُّورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة والعشرون، المقصد الثاني، ص. ٥٩٧.

تغذيـه بأشـعّتها والتربة مناسـبة والأحوال ملائمة لإخراج سـاقين فَعَل؛ وقد يُخرج ثلاثَ سُـوق ما دامـت الأحوال ملائمة، وعندئذ نعلـم أن الظـروف كانت كافية للتغذية، وإلا أخـرج واحدًا، وكأنه يقـول: لا طاقة لي إلا بهذا. وإذا أُصيبَت الشـجرةُ بآفة سـرعان ما تطرح ثمارها لتنقذ نفسها، ولْيظنّ الفلاح ما شاء فالمصاب الشجرة لا الثمـر، وكأن الشـجرة تقول: اعذرونـي، لا قدرة لي على رعاية هذه الثمار؛ أنا مضطرة للعناية بنفسي والحال هذه، أنا بحاجة إلى أن أعتني بنفسي".

ولا قِبَـلَ لنـا الآن بـإدراك هـذه الأمـور إدراكًا تامًّا، وسـنعرف لاحقًا أنّ فـي النبـات قانونًـا يقوم بهذا كله، ويوجّه النباتات، وهذا كله من سـنن الله ﷻ.

والشـيء نفسُـه يُقال في جـزيء الحمض النووي الريبـوزي منقوص الأوكسجين "*DNA*"، فهو يرسل شفرات يعمل الحمض النووي الريبوزي غير منقوص الأوكسجين "*RNA*" بمقتضاها وكأنه مهندس أو كيميائي.

ونلاحـظ أنّ المخلوقات ذات الشـعور هي الإنـس والجنّ والملائكة فقط، أمّا الحيوانات فتسـوقها حواسّها بالتوجيه الإلهي؛ وإن الله تعالى هو من وراء ما يصدر عنها من حركات شعورية.

أجل، إنّ الله تبارك وتعالى هو مَن يسـوق كل شـيء إلى قدر معلوم، ويوجهـه وجهـة خاصـة، ولكن هنـاك قوانين أيضًـا وضعها الله لا سـبيل إلـى إنكارهـا، قوانيـن مثيرة ومؤثرة حتى إن من يتحسسـها عـن بُعْد يكاد يسـمّيها شـعورًا، إذًا كيـف ينكر أنـاسٌ وجودَ الجنِّ وهم يـرون ما يجري حولهم، حتى يكاد الإنسـان يسـمي من ينكرون الجن مجانين؛ فثمة آلاف القوانين، كلّ منها قانون يشـبه الجنّ أتمّ الشـبه في سريانه، وهذا يدلّ على أن وجـود الجـن ممكن عقلًا لا ريب فيه؛ فلِمَ لا يقرّون بوجود الجن كما

يقـرون بوجود التيار الإلكتروني، لكن إياك أن تظنّ أنّا نعرّف الجن بالتيار الالكتروني؛ يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ**﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٥٥/١٥).

قد يعرِّف بعض الناس الجنّ بالفوتونات والجُسيمات، والحقّ أنّ الجنّ أجسام لطيفة خُلقت من مارج من نار لا من فوتونات أو جسيمات، مكلفة كالإنسان، فلا موجب للقول بعدمها، ودعوى العدم مكابرة وخلاف المنطق.

والحـقّ أنّ القـول الفصـل في هذه المسـألة للقرآن الكريـم، لا تكاد الآيـات تذكـر خلـق الإنسـان إلا وتتبعـه بذكـر خلـق الجن، قـال تعالى: ﴿**وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـانَ مِـنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْـنُونٍ ۞ وَالْجَـانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّـمُومِ**﴾ (سُـورَةُ الحِجْر: ١٥/٢٦-٢٧) و﴿**خَلَقَ الإِنْسَـانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ**﴾ (سُـورَةُ الرَّحْمَنِ: ٥٥/١٤-١٥)، فالجن خلقوا من نار هي عنصر من عناصر المادة يتطاير منها الشَّـرَر، ليسـت نارًا محرقة ولا هي بدخان أسـود؛ وهذا هـو ما ذكره القرآن الكريم عن ماهية الجـن. أمـا مـن لقي الجن مـن الأنبيـاء والصحابة الكرام وأهل الكشـف والتحقيـق فالغالـب أنهم رأوا الصور التي يتمثل بهـا الجنّ. أجل، رأوهم بالصور التي يتمثلون بها وتحدثوا إليهم وكانوا على اتصال بهم.

أجل، للجنّ بُعدٌ ما مركَّب من اجتماع جسم لطيف وروح ذي شعور، فيتمثلـون تبعًـا لخواصّ أبعادهم، ولا ننسـى أنّ اختـلاف التمثلات ناجمٌ عن اختلاف استعداد المرايا.

ورغـم أن الجنَّ أجسـام لطيفة مخلوقة مـن مارج من نار أي من عالم المادة إلا أنهم مثلنا ذوو شـعور وأرواح تسـيطر على المادّة، فلم يُصنَّفوا في الجمادات والكائنات الأخرى لأنهم ذوو شعور وإدراك، فهم مكلَّفون مثلنا بالإيمان بالله والعبادات دون أدنى فرق.

والجنُّ المخلوقُ من مارجٍ من نار يتمثل في صور شتَّى، فكما يتمثّل لبعض الناس في عالم المعنى في الرؤيا قد يتمثّل لهم خارجَها ويشاركهم العالم الذي يعيشونه، فمثلًا: قد يتمثَّلُ لك في الرؤيا أحدُ أقاربك، أو بعض المشاهد من عالم البرزخ، وأيضًا قد يتمثل الجن ويظهر للناس رأي العين، لكنهم لا يرونه بهويته الحقيقية، وما يرونه إن هو إلا انعكاس لمرايا أرواح من يتمثلون لهم، وهذا الانعكاس يأتي على حسب استعداد المستقبِل.

وهذا يفسر لِم كانت رؤية سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ للجن مختلفة عن سيدِنا أبي هريرة وسيدِنا أبي ذر ﵄، فمثلًا: رأى سيدنا ابن مسعود ﵁ الجنَّ عند رسول الله ﷺ في صورة ظلّ، ورآهم سيدنا عمر ﵁ على صورة إنسان ضعيف نحيف، ورآهم أبو ذر ﵁ على صورة أخرى... وهذا يبرهن أن الجنّ يتمثلون في أشكال وصور شتّى.

أما مسألة تحضير الجن والأرواح، فكم من الأفراد والمنظمات يشتغلون بهذا الأمر بأسماء وألقاب متنوعة، بل أغرق بعضهم وزعم أنه التقط صورًا للجن والأرواح.

فهل يمكن تسخير الجنّ والأرواح، وهل يمكن أن نراهم؟ هذا أمر قابل للنقاش.

أما تسخير الجن فسيكون الاتصال بالجنّ في آخر الزمان على مستوى أعلى؛ وقد تُمكِّنُ التطورات العلمية والدراسات الحديثة مِنْ تَلقّي الأخبار عن طريق الجن في أمور من عالم الشهادة -لأنَّ الجن لا يعلمون الغيب- وإجراءِ اتصالات استخباراتية من خلالهم، والاستفادة منهم في شؤون تناسب طبعهم.

كم سمعنا وقرأنا عن مسألة مسّ الجنّ وحضورهم وتحضيرهم حتى إنها أصبحت من الأمور المسلَّم بها لدى الناس جميعًا، وإليكم حادثة وقعت لي في هذا الأمر: عُدتُ مريضًا أصيب بمسّ الجن، وأخذتُ معي كتابًا فيه أسماء أهل بدر ﵃، وبينما أنا على أول سُلّم البيت إذ بي أسمع المريض يرفع عقيرته ويقول: إنهم يمنعونني أن أَقْبَل هذا الكتاب؛ فلما دخلتُ عليه وقدمتُ له الكتاب، ضمَّه إلى صدره، ورغم أنه لا يَعرف محتوياته صرخ قائلًا: "جاء سيدنا حمزة ﵁ ففررتم، أليس كذلك؟!"

وذكر أخٌ لنا عمل في مؤسسة خيرية أنه كان يشاهد أحيانًا في المبنى الذي يقيم فيه حَراكًا لبعض الأشياء ومحاولات لفتح الباب عنوة، وجولانًا هنا وهناك؛ وقد أقمتُ في هذا المكان بضع ساعات، فشاهدت حوادث كثيرة.

وحكى لي أخ متخصص في الطب النفسي واقعة حدثت له، قال: في مكان ما كانوا يحضّرون الجن ويستعملون فيه فنجانًا وكان الفنجان يتوجه إلى حروف معينة مكتوبة حوله على المنضدة فيجيب على أسئلتنا؛ وضعت يدي على الفنجان فلاحظت أنه يتحرك، وأنه يتجه نحو الحروف والأرقام التي على المنضدة، فحضر الشيطان عند تحضير الأرواح، فقلنا له: من أنت؟ فكتب: الشيطان، فأخذتنا الرجفة، لقد حضر -دون داع- عدو الإنسانية منذ آدم ؈؛ فخطر ببالي شيء، قلتُ له:

هل لك أن تَسمعني وأنا أقرأ لك شيئًا؟

فقال: أسمعك.

فشرعت في القراءة من "رسائل النور" لبديع الزمان سعيد النُّورْسِي:

"هب أنّ ملايين المصابيح الكهربائية تتجول في مدينة عجيبة دون نفاد للوقود ولا انطفاء؛ ألا تُري بإعجاب وتقدير أن هناك مهندسًا حاذقًا، وكهربائيًّا بارعًا لمصنع الكهرباء ولتلك المصابيح؟" ما رأيك؟

-نعم، هذا صحيح.

فواصلت القراءة:

"فمصابيحُ النجوم تتدلّى من سقف قصر الأرض، وهي وفقًا لعلم الفلك أكبرُ من الكرة الأرضية نفسها بألوف المرات، وأسرعُ في مسيرها من الصاروخ بلا خلل في نظامها، ولا تصادم فيما بينها ألبتة ولا انطفاء ولا نفاد وقود؛ هذه المصابيح تشير بأصابع من نور إلى قدرة خالقها المطلقة، فشمسنا مثلًا -وهي أكبر بمليون مرة من كرتنا الأرضية، وأقدم منها بمليون سنة- ما هي إلاّ مصباح دائم، وموقد مستمرّ لدار ضيافة الرحمن؛ ويقتضي استمرار اتقادها واشتعالها وتسجيرها كلَّ يوم وجود وقود بقدر بحار الأرض، وفحم بقدر جبالها، وحطب أضعاف أضعاف مساحة الأرض؛ وإنما تُوقدُها وأمثالَها من النجوم بلا وقود ولا فحم ولا زيت دون انطفاء وتُسيِّرُها معًا بسرعة عظيمة دون اصطدام قدرةٌ لا نهاية لها وسلطنةٌ عظيمة لا حدود لها؛ فهذا الكون العظيم وما فيه من مصابيح مضيئة وقناديل متدلية يكشف بوضوح -وفقَ ما قرأتم أو ستقرؤون من قوانين علم الكهرباء-، عن سلطان هذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرّف منوِّره ومدبِّره البديع وصانعه الجليل بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحبِّبه إلى الخلق جميعًا بالتحميد والتسبيح والتقديس بل يسوقهم إلى عبادته سبحانه." فاعترض الفنجان على ذلك بشدة وكتب:

-كلا، كلا.

فقلت: والآن أصغ إليّ:

"لو أن صيدلية ضخمة في كل قارورة منها أدوية ومستحضرات حيوية وُضِعت فيها بموازين حساسة وبمقادير دقيقة؛ ألا تُثبت لنا أن وراءها صيدليًّا حكيمًا وكيميائيًّا ماهرًا؟"

- بلى.

"كذلك صيدلية الكرة الأرضية، فيها أكثر من أربعمائة ألف نوع من الأحياء من نبات وحيوان، وكلٌّ منها في الحقيقة بمنزلة قارورة مستحضرات كيميائية دقيقة، وقِنّينة مخاليط حيوية عجيبة؛ هذه الصيدلية الكبرى تكشف حتى للعميان عن صيدليّها الحكيم ذي الجلال، وتعرّف درجةُ كمالها وانتظامُها وعظمتُها بخالقها الكريم سبحانه، وذلك قياسًا على صيدلية السوق المذكورة، ووفقًا لما تقرؤون في قوانين علم الطب". فعارضني ولم يدعني أسأل عن شيء، وقال:

- كلا، كلا.

كان يردّ بالموافقة على الأمثلة التي أقرؤها، فإذا قرأت الحقائق التي تشير إليها تلك الأمثلة اعترض ورفض. عرضت عليه أن أقرأ دعاء، قال: اقرأ.

وضعت يدي على الفنجان وأنا أقرأ دعاء من الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، فإذا به يتحرك بسرعة فائقة حتى إنني لم أستطع التحكم في أصبعي، ثم سقط الفنجان، وكتب بسرعة: دعك من هذا الهراء!

يقول الأستاذ النُّورْسِي في هذا الصدد:

"مثلما ثبت بالمشاهدة ثبوتًا قطعيًّا وجود أرواح خبيثة في أجساد بشرية في عالم البشر، تنجز وظيفة الشيطان وأعماله، ثبت

كذلك ثبوتًا قطعيًّا وجود أرواحٍ خبيثة بلا أجساد في عالم الجنّ، فلو أنها أُلبست أجسادًا ماديةً لأصبحت كأولئك البشر الأشرار، وهكذا شياطين الإنس ممن هم على صورة بشر لو خرجوا عن أجسادهم لأصبحوا أبالسة الجنّ"(٣٦).

فلو لاحظنا ما هنا لوجدنا أن أقوال شياطين الإنس والجن وعباراتهم واحدة، لاحظوا الشبه الجليّ بين قول الجنيّ "دعك من هذا الهراء!" وقولِ بعض الناس.

يدعي بعض الناس أنهم يحضّرون الأرواح، والراجحُ في الواقع أن الذي يحضُر هو الجن، فيصبح من يقوم بهذا أضحوكة للجن والشياطين، وأظنّ أن هذا الأمر لو بُحِثَ بعمقٍ ونُظِر فيه بعناية أكثر فقد تظهر نتائج مفيدة؛ أمّا ما يفعله هؤلاء الآن فلا يعدو أن يكون أضحوكة وتخليطًا.

(٣٦) بديع الزمان سعيد النُّورسي: اللمعات، اللمعة الثالثة عشرة، الإشارة العاشرة، ص. ١١٣.

هلاك الأمم جماعات

سؤال: هلكت قديمًا بعضُ الأقوام جماعةً مثل قوم لوط وقوم نوح عليهما السلام، بسبب ما ارتكبوه من ذنوب معينة، فلم لا تهلك اليوم الأممُ جماعات رغم ما يُرتكب فيها من كل أنواع الذنوب؟

الجواب: إن سنة الله عز وجل جرت بتعذيبه العصاةَ والطغاةَ في الدنيا لتأديبهم علاوة على ما هو مقدَّرٌ من عذاب الآخرة. والحقُّ أن نوعية عقاب قوم لوط مرعبة وفيها عبرة، فَـ"سَدوم" و"عامورا" عند بحيرة لوط، أُرسل إليهما سيدنا لوط عليه السلام، ثم أخذتهم الصيحة، فهلكوا في صبيحة أحد الأيام، وفصّل القرآن الكريم خبر قوم لوط عليه السلام وخبائثهم وسوء عاقبتهم، وكذا خبر قوم نوح عليه السلام، فقد أرسل عليهم الطوفان؛ إذ أمطرت السماء، وتفجّرت الأرض عيونًا، فغمرت المياه جميع الأرض، وهلك العصاة ما عدا ثلة قليلة ركبت مع نوح عليه السلام السفينة، فنجَتْ بفضل الله ومنَّتِه؛ وفي روايات ضعيفة أنهم نحو ٦٠-٧٠ شخصًا؛ توالد وتكاثر منهم البشر من جديد؛ ولندَع علماء الآثار يبحثون في الأمارات: كيف وأين وقعت هذه الحادثة؟ ولنبحث نحن الأمر في هذه الأمة المباركة:

أجل، أمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (أعني أمة الدعوة بمن فيهم المسلمون وغيرهم) ترتكب اليوم كثيرًا من الذنوب، خصوصًا أن بعض بلدان العالم بلغ فيها الفسق والفجور ما لم يبلغه قوم سيدنا لوط أو سيدنا صالح أو سيدنا هود عليهم السلام.

ومـا يميزنا هـو أننا من أمة محمد ﷺ، وهـذه الخصوصية غدت لهذه الأمة كمانعة الصواعق؛ وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى آية قرآنية وبشرى نبوية أيدتا هذه الخصوصية:

يقـول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَـا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٣٣/٨).

وننوه هنا بمنزلة الرسول الأكرم ﷺ التي لا تدانيها منزلة؛ فهذا المسيح عليه السلام يناجي ربه في أمر من طغى وضلّ مِن قومه: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١١٨/٥).

أَمَّـا نبينـا ﷺ فيقول القرآن عنه وعن أمته: ﴿**وَمَـا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِـمْ وَمَـا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ**﴾ (سُـورَةُ الأَنْفَـالِ: ٣٣/٨)؛ أيْ لأمة محمـد ﷺ حجابـان مهمـان أو مانعـان للصواعق؛ فالعـذاب لا يعدوهما، والبلاء ينعدم تأثيرُه أمامهما:

أولهما: وجود النبي ﷺ في أمته بشـخصيته الحسـيّة أو المعنوية، أدام الله علينا هذه النعمة إلى يوم القيامة.

ثانيهما: وجود زمرة من القائمين بالدين والمسـتغفرين في أمة محمد ﷺ يحمون الحقّ والحقيقة؛ فمِن رحمة الله نرجو أن لا يعذبنا جماعةً.

أما بشـارة رسـول الله ﷺ ففـي الصحاح أن النبيَّ ﷺ دعـا ربه كثيرًا أن لا يُهلـك أمتـه، وأهمُّ ما دعا به كان في حجة الـوداع في عرفة والمزدلفة، ففي هذين المكانين المباركين دعا الله بما نُفِث في روعه، حتى إنه توسل إلـى ربـه وتضرع أن يتجاوز عن حقوق العباد، هل اسـتُجيب له أم لا، الله أعلم، ولا أملك أن أقول شيئًا في هذه المسألة.

أجـل، لطالمـا كان النبي ﷺ يدعو ربـه أن لا يهلك أمته، ويروي ذلك للصحابـة الكرام قائلًا: "**سَـأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَـيْنِ وَلَمْ يُعْطِنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَقْتُلَ أُمَّتِي بِسَنَةِ جُوعٍ فَيَهْلِكُوا فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِي**"[٣٧].

أجل، لـم يُسـتجب له ﷺ في هذه المسألة، لأنّ حلّها رهنٌ بإرادة أمته؛ نعـم، كلّمـا ارتكبـت الأمم الأخرى الجرائـمَ والآثام نزلت بهـا الكوارث الأرضية والسـماويّة، أمّا هذه الأمة فكلما كان منها ذلك جعل الله بأسـهم بينهم، وتمزقت وحدتهم وكلمتهم، وأكلتهم النزاعات؛ فدعا النبي ﷺ ربه أن يرفـع هذا عن أمته، فلم يُستجب له لحكمة يعلمها هو سبحانه.

وإليكـم هذه المسـألة في ضوء ما تشـير إليه الآيـة الكريمة، وما ذكره أهل الكشف والتحقيق:

لـو تحققـت الخدمة الصادقة للدين وللقـرآن المعجز البيان في مكان ما ولو يسـيرًا، ولم يُخشَ على أهل الحق من الهزيمة، فلسـوف يرفـع الله بهـؤلاء البلايـا والمصائبَ كما تُدفـع الصواعـق بالموانـع. أجل، إن وُجِد عشـرة رجال مخلصين يخدمون الدين على هذه الشـاكلة فسيرفـع الله بهم البلايا، أما إذا كان أهل الحق مغلوبين فسيهزّهم الله تعالى.

والله أعلم بالصواب.

---

(٣٧) المسند لأحمد بن حنبل، ٤٢٢/٣٦.

انتقال الإنسان إلى قارة أمريكا

سؤال: كيف وصل الإنسان إلى قارة أمريكا؟

الجواب: تفوح من هذا السؤال رائحة الجدل والمغالطة، السؤال يبدو بسيطًا لكن الهدف من طرحه ليس كذلك، فهم يحاولون أن يقولوا: "أنتم تقولون: الناس جميعًا من نسل آدم وحواء عليهما السلام، فكيف جاء هؤلاء وهم من أب واحد وأمّ واحدة إلى هذه القارة الجديدة؟ فلو كان الأمر كما تقولون لما استطاع أحد الوصولَ إليها، والنتيجة أن هذا دليل على نشوء كل إنسان في منطقته الخاصة به نشوءًا ذاتيًّا، أي بالتطور".

هكذا يكمن مثل هذا الفكر الإلحادي تحت سؤال كهذا يبدو بسيطًا للوهلة الأولى؛ أجل، نقول: الناس جميعًا من نسل آدم وحواء عليهما السلام، ولسنا نحن من يقول هذا، بل إن الله هو من يقوله سبحانه وتعالى؛ فنحن نؤمن به حقًّا ويقينًا.

يحاول العلماء الماديون منذ سنوات بنظرياتٍ كثيرة دحْضَ ما في القرآن الكريم عن الخلق، لكننا رأينا -كما فصّلنا في موضعه[٣٨]- بأن هذه النظريات المكرّرة تهافتت تِباعًا، وثبت علميًّا أن ما ذكره القرآن هو الصحيح، ولن ندخل في هذا الموضوع الآن، بل نُحيل من يرغب في ذلك إلى ما قلناه بالتفصيل في هذا الصدد، ونكتفي بأن نقول: الناس

(٣٨) لما رأى الأستاذ فتح الله كولن الحاجة ماسة للوقوف على ماهية "نظرية التطور" ألقى فضيلته محاضرة تدور حول هذه النظرية موضحًا أنها تستند على أسس عفنة واهية كما أنها مليئة بالمغالطات، ثم صيغت هذه المحاضرة على شكل كتاب تُرجم فيما بعد إلى بعض اللغات ومنها اللغة العربية ونشرته مؤسسة دار النيل باسم "حقيقة الخلق ونظرية التطور".

جميعًا هم من نسـل آدم وحواء عليهما السلام، وتُمنَى النظرية الداروينية التي ادعت العكـس بسـيل جديـد من نبـال المعارضة العلميـة، ونذكِّـر أن الداروينية ليست إلا نظرية فحسب.

قـد يـرى بعضهـم أننا نحـاول حشـد أدلة أكثـر مما ينبغـي لدحض هـذه النظريـة المبنيـة على أسـس واهية جـدًّا، لكننا معـذورون في هذا؛ فللفكـر الإلحـادي الخبيث الكامن فيها خطر يسـوّغ قيامنا لحشـد الأدلة بل يضطرنا إليه.

والمُشاهَد أن نظرية التطور وُلدت جثة هامدة، لم تسر فيها الحياة قط، وتعرضت حتى الآن لسـهامِ المئات بل الآلاف من العلماء المؤمنين حتى أثخنـت بالجراح، وحُكم عليها بالإعدام مئات المرات؛ فتفنيدنا لها سـببه محاولة بعض أهل الضلالة إحياءها وخداع بعض الشباب بها.

وبصـدد هذا الموضوع نقول: تعرضت الأرض مرات لتغيرات كبيرة، فالجيولوجيون يقولون مثلًا: كان البحر الأبيض المتوسـط بَرًّا قبل عشـرة آلاف سـنة، وكان كثيـر مـن البر اليوم بحارًا آنذاك؛ فـإن صحّ ما يقولونه، فمعنـى هـذا أن حضـارة ودولًا قامـت آنـذاك فـي أرض البحـر الأبيـض المتوسـط؛ ومثـل هذا يقال في قـارة أمريكا وأسـتراليا، فيحتمل أن هاتين القارتيـن كانتـا متّصلتين بالقارات الأخـرى، وأن المحيطات التي تفصلها الآن كانـت بـرًّا، وهذا يبين أن انتقال الإنسـان إلى قارة أمريكا وغيرها من القارات كان ممكنًا ميسورًا.

وتاريـخ الإنسـانية أقدم مما يُتصـور، فمنذ مدة نُشـرت مقالات حول العثور على هيكل عظمي لإنسان عاش قبل ٢٧٠ مليون سنة، أما عمر أقدم هيكل عظمي للقرد تم العثور عليه حتى الآن فيرجع إلى ١٢٠ مليون سنة،

أي بينهما فرق كبير جدًّا، ونلاحظ أيضًا أن بعض الأحياء المائية التي تعيش في أعماق البحار كالطحالب باقيةٌ بحالها كما كانت قبل ٥٠٠ مليون سنة، وخلية النحل هي هي قبل ٥٠٠ مليون سنة.

ويشير العلماء بهذه الأرقام إلى أن نشأة الوجود وتاريخ الخليقة أقدم مما كان يُتصور سابقًا.

ولا يجوز الحكم على عهود تاريخية أقدم من العهود التي عرفها علماء التاريخ، فعلى الأقل يدخل ما ذكرناه في دائرة الاحتمالات التي يجب إجراء التقييم على ضوئها، فأصحاب النظرية المعارضة لنظريتنا لا دليل يُعتدّ به عندهم لنقض نظريتنا.

عندما التقى أهالي "مايا" بالفرنسيين قالوا لهم: في تاريخنا القديم المكتوب أن أرضنا كانت متصلة قديمًا ببَرّ بلد آخر، وأن طوفانًا أتى على ذلك البلد فأغرقه في البحر؛ وبقينا في الأعالي.

وفي تاريخ الهند إشارة مماثلة لهذا، فهم يذكرون حدوث طوفان كبير انفصل إثره البر المجاور لهم، وفصل بينهما المحيط؛ فقد تكون قارة أستراليا هي ذاك البر؛ فرحيل الإنسان إلى قارة أمريكا أو أستراليا لم يكن عسيرًا أو مستحيلًا كما يدّعون.

وأخيرًا لو فرضنا أنّا اعتمدنا برّ الأرض كما هو موجود الآن، فالوصول إلى تلك القارات ليس عسيرًا، فمضيق "بيرنغ (*Bering*)" كثيرًا ما تتجمد مياهه، فيمكن العبور من روسيا إلى أمريكا، وهذه المسافات يمكن قطعها حتى بالسفن البدائية، ونحن نعرف أن الرحّالة المسلمين استطاعوا الوصول إلى أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، أي قبل وجود

السفن الحديثة، وشحنوا حتى جيادهم على سفنهم، واكتشفوا أمريكا؛ وهذه الحقيقة يشير إليها كثير من الباحثين؛ فانتقال الناس إلى أمريكا وتكاثرهم هناك لم يكن عملية مستحيلة أو حادثة غريبة خارقة للعادة، بل هي حادثة معتادة.

أما تفنيد الداروينية، فقيل الكثير جوابًا على الأسئلة المثارة حولها، وطبعت كتب وبحوث علمية كثيرة تدحضها، فلتراجع.

أسماء اللَّه تعالى وصفاته

سؤال: ما الفرق بين أسماء الله تعالى وصفاته؟

الجواب: لو لم يُسمِّنا آباؤنا وأمّهاتنا وسُمّينا حسب ما سنكتسبه من مهارات لاحقًا، لَكان اسم هذا خَبّازًا، وذاك نجّارًا... إلخ؛ أي لدلَّت الأسماء على مهارات ذويها؛ وقد تكون هذه الأسماء بصيغ المبالغة، فمن يستر سترًا معتادًا اسمه "ساتر"، ومن يستر سترًا كاملًا اسمه "ستّار"، ومن يحمد اسمه "حامد"، ومن يحمد حقَّ الحمد اسمه "حمّاد".

بيد أننا لا نسمّى بأسمائنا وفق مهاراتنا المستقبلية، بل هي رغبات آبائنا وأمهاتنا، حتى إننا قد نُسمّى بأسماء لا تناسبنا ولا تلائمنا. قد يبدو هذا التشبيه سمجًا مبتذلًا، لكن هذا منهج يُستخدم في التعبير الميسَّر لتوضيح الحقائق المجردة وتيسير فهمها.

أما أسماء الله الحسنى فإنها أسماء تَعلَّمناها من رُسُلِ صاحب هذه الأسماء الذي تُشاهَد آثارُه في الكون، فمثلًا جمال الكون بيّن جليّ يحيط بالكون كله، ويعانق بعضه بعضًا عناق ألوان قوس الله، ونشاهده في السهول والبساتين والجبال والأزهار والعيون والحواجب؛ والشعراء إنما ترنَّموا ولا يزالون بصورة هذا الجمال منذ آلاف السنين، لكنهم لم يعبّروا إلا عن جزء صغير مما يمكن أن يُذكَر ويقال عن الجمال؛ فهذا الجمال الذي أسرنا وعجزنا عن التعبير عنه حق التعبير يستند إلى اسم الله تعالى "الجميل".

ونرى الرزق يقسم بين الكائنات بنظام دقيق، فمن الخلية إلى وحيد القرن كلّ يُغذَّى بما يناسبه من رزق، ورزق الملائكة العبادةُ والذكر

والتسـبيح، ورزق الإنسـان اللحمُ، ورزق الجن العظمُ؛ ومرجـع كل هذه الأفعال المتعلقة بالرزق هو اسم "الرزاق" قطعًا.

ولـو لـم نكـن نعلـم أن "الجميل" و"الـرزاق" مـن أسـماء الله تعالى، وشـاهدنا أفعالـه وآثـاره لَدعوناه وقلنـا: "يا جميل" "يـا رزاق". ومثل هذا يجري في أسمائه الحسنى الأخرى؛ فالله تعالى أظهر آثار أسمائه الحسنى لنـا ثـم علمنا أنه سـمّى نفسـه بها لكـي لا نخطئ في تسـميته، وأسـماؤه سبحانه توقيفية، أي لا نستطيع تسميته بأسماء لم تثبت بنصّ.

والأسـماء الإلهيـة مرجعهـا إلى الصفـات الإلهية؛ وبنـاءً على المثال السـابق عرفنـا أنه لا يمكن تسـمية من لا يخبز "خبّـازًا"، ولا من لا يملك مهـارة فـي النِّجـارة "نجّـارًا"؛ فاسـم "الجميـل" الـذي نعرفـه مـن خلال الجماليات التي نقشـها الله على كل شـيء، والذي يشـاهده من يشـاهده، يستند إلى صفة "الجمال" التي هي منبع كل الجماليات.

وهكـذا الأسـماء كلهـا، فهي ترجـع إلـى صفات معيّنـة، و"الصفات" مَنشـؤها "الشـؤون"؛ (والشـؤون مثـل القابليات والاسـتعدادات بالنسـبة للإنسـان، لكـن هاتيـن الكلمتيـن لا يجوز اسـتعمالهما في حـق الله عز وجل). إذًا فالأفعال الربانية تسـتند إلى الأسـماء الحسنى، والأسماء إلى الصفات السـبحانية، والصفات إلى الشـؤون الإلهية، والشـؤون إلـى ذات الله سبحانه وتعالى؛ ونقف هنا لنقول: "ما عرفناك حقّ معرفتك يا معروف" أو "العجزُ عن درك الإدراك إدراك"، نقول هذا وننحني بكل أَدَب وخشوع.

هـو سبحانه وتعالى موجـود، كل شـيء فينا يشـير إلى وجـوده، لكننـا نعجز عن إدراكه، ليس هناك أظهر ولا أبْيَن منه، ومـع هذا هو الظاهر الباطن.

حسـبنا هـذه النظرة السـطحية حول الفـرق بين أسـمائه وصفاته سبحانه وتعالى، ونفصّل فيه لاحقًا.

أولو العزم من الرسل

سؤال: من هم أولو العزم من الرسل؟ ولِمَ خُصّوا بهذا اللقب؟

الجـواب: كلمـة "أولو" لغةً بمعنى "أصحاب"، جمعٌ شـاذ لكلمة "ذو" بمعنـى "صاحـب"؛ أمـا كلمـة العـزم فلها معـانٍ منهـا: الحـزم والإصرار والثبات، فإذا ما أضيفت إليها كلمة "أولو" صار معناها "أصحاب الإصرار والحزم"؛ وسأسـتطرد إلـى آية تداعى ذكرُها عند ذكر هـذه الكلمة، يقول الله تعالى عن سـيدنا آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَـا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (سُـورَةُ طَهَ: ٢٠/١١٥). قال بعض المفسـرين: ولم نجد له عزمًا على ترك المعصية؛ لكني شخصيًّا لا أستطيع أن أقبل هذا التفسير في حقّ نبيّ من الأنبياء، ولا يطمئن إليه قلبي، والمعنى الأمثل عندي: كان ما كان من آدم دون قصـد منـه، لكنَّه لم يكن عازمًا أو مخططًا من قبل لفعل ما فعل؛ فمعنى ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي إصرارًا على ارتكاب ما كان منه.

أمـا أولـو العزم من الرسـل فهم من ذُكـروا في الآيـة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (سورة الأَحْزَابِ: ٣٣/٧)؛ أي هم سيد السادات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المشـار إليه بكاف الخطاب "منك" وسـيدنا نوح وسـيدنا إبراهيم وسـيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهم السلام.

وكل نبي له خصوصية، غير أن هؤلاء الخمسـة كل شـيء في سُوقهم غالٍ وثمين؛ فكم من ابتلاءات شـاقة عسـيرة اجتازوها، وإذا ما أمعنّا النظر بدقـة فيمـا ذكره القرآن مـن قصصهم فسـندرك بوضوح لِـمَ أُطلق عليهم

لقب "أولو العزم"؛ فرسول الله ﷺ رغم ما لقي من أذى المشركين وعنتهم لم ينبس فمه الشريف ببنت شفة توحي بالشكوى أو السخط من القَدَر؛ ثم انتصرَ يوم بدر، وتحمل عبء ما حدث يوم أُحُد كأنه احتمل جبل أُحُد، ولما قفل راجعًا من أحد لم تبدر منه أي كلمة توحي بتوبيخ الصحابة الذين تسببوا في الهزيمة لقصورهم عن استيعاب الدقة في امتثال الأوامر؛ وكم أحزنه فقده لعمه حمزة ﵁ يومئذ، لكنه كتم ما آلمه وأهمّه في قلبه في هذا الموضع أيضًا.

ليس له همّ سوى هداية الناس، كان حريصًا أشد الحرص على ذلك حتى كاد يُهلك نفسه، فذكره القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ (سورة الْكَهْفِ: ٦/١٨)، وبقوله: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٣/٢٦)، ففي هذه الصورة البيانية إشارة إلى مدى حرص النبي ﷺ على هداية الناس كافة.

قضى ﷺ حياته في هذا الأفق؛ فما وَجد الضيقُ أو الجزع أو الضجر إليه سبيلًا، بل ثبت ثبات الجبال في وجه كل ما نزل به؛ ظل سنين وهو يغزل غزلًا ما، ثم قضى القدَر بنقض هذا النسيج، فلم يضجر ولم يسأم، بل أخذ ينسج من جديد دون توقف.

والحقّ أنَّ هذه الخصوصيةَ عامّةٌ للأنبياء جميعًا، ولكن كما أنهم متفاوتون في الدرجة فكذا فيما ينزل بهم من مصائب وابتلاءات، وأممُهم متفاوتة كذلك.

ويا له من مشهد عظيم ذي مغزى عرضَهُ رسولُ الله ﷺ في هذا المقام! كُشف له حجاب الغيب فرأى جميع الأنبياء... وهاكم الحديث من فمه

الشريف ﷺ: "**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى** ﷺ **وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**"[٣٩].

ولنتأمل أن من الأنبياء مَن اجتهد وجاهد طول عمره في سبيل الدعوة، ورغم ذلك التحق بالرفيق الأعلى ولم يجد من يفقه عنه، ومنهم من كانت أمته بضعة أفراد؛ وأظنّ أنّنا نُمنَى بالفشل إن ابتُلينا بمثل هذا الموقف.

هذا إبراهيم عليه السلام غُلّت يداه ليُرمى بالمنجنيق، ويُطرح في نار مستعرة يشبّ لهبها كأمواج البحر المحيط؛ فاستأذن الملَكُ ليكون ظهيرًا له عليه السلام، لكنه اعتصم بالله وما نقص توكله به مثقال ذرة، وقال: "حسبي الله ونعم الوكيل".

وذاك سيدنا نوح عليه السلام، ما ركب معه في السفينة إلا حفنة من الناس بعد مكابدة ومعاناة دامت ردحًا طويلًا من الزمن، بل لم يستطع أن يصحب ولده معه، وما أشده من مشهد وأصعبه على أب يحمل روح نبي! يتعذر بل يستحيل أن نفهم هذا الشعور.

والمسيح عليه السلام حُكِم عليه بالموت وهو في سن يُعدّ مبكرًا، ولو أطلّ برأسه لرأى سيوفًا مسلولة تأهبت لتنقضّ عليه وتمزقه، لكنه مع ذلك صمد وثبت، ولم يتزعزع ولو لحظة.

أجل، إن هؤلاء مختارون مصطفون من بين من حظوا بسرِّ قوله تعالى: ﴿**اَللَّه يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٧٥)؛

---

(٣٩) صحيح البخاري، الطب، ١٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٣٧٤ (واللفظ لمسلم).

فهـم قِشْـطة اللبن في قدح الوجـود الذي يغلي برحمة الله، وبهذا الشـكل تجلـت فيهم قدرة الله وإرادته؛ ومـن أوصافهم التي لا تنفك عنهم التوكلُ العميـق والعـزم الـذي لا يعـرف اللين والسـآمة؛ لـذا أطلق عليهـم "أولو العـزم"، ولكل نبي وولي عزمٌ خاصّ، كل حسـب درجتـه ومرتبته، إلا أن هذه السمة بلغت أوجها لدى هؤلاء.

أهل التصوف وقِدَم العالم

سؤال: **يقولون: حذا الصوفيةُ حذو الفلاسفة الماديين في مسألة قِدَم العالم، فكيف يجتمع ما قالوه والعقيدة الإسلامية؟**

الجواب: الصوفية ليسوا قائلين بقدم العالم، ونسبةُ هذا إليهم جميعًا خطأ بحت. أجل، فيهم من قال بـ"وحدة الوجود"، بل منهم من شطّ في فرضيات "وحدة الموجود"، لكن هذا لا يعني أنهم قالوا بقدم العالم، وإن بدا أنهم يقولون بهذا في الظاهر إلا أن الواقع خلاف ذلك، بل إنه ليؤكد أنهم لم يقولوا بذلك.

وقبل كل شيء لا بدّ أن نعرف مَن هم المتصوفة ومن هم الصوفية؟

المتصوفة هم من يشتغلون بنظريات التصوف؛ أما الصوفيّة فهم أرباب الحقيقة حقًّا في هذا الميدان، يُعنَون بالحال أكثر، ويستندون في منهجهم على بعض الأمور، منها ما شاع بينهم واستقرّ أن سيدنا أبا بكر ﵁ أخذ عن النبي ﷺ يوم الهجرة في غار ثور دروسًا معنويةً، وأنّ سيدنا عليًّا ﵁ أخذ عن النبي ﷺ درسًا خاصًّا في مجالس خاصّة؛ ورغم أنه يصعب أن يقول بهذا من اهتدى بهدي الكتاب والسنة والإجماع، فإن اعتقادهم بهذا تامّ لا يعتريه شكّ، "من لم يذُق لم يعرف".

ومن الناس من راوده الشك والريب في هذا يومئذ كما يحدث اليوم، فسألوا سيدنا عليًّا ﵁: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: "لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة"، قال السائل: وما في الصحيفة؟ قال:

"العَقْلُ (أي الدِّيَة)، وفَكاك الأسير، وأن لا يُقتل مسلمٌ بكافر"[٤٠]؛ ونحن لا نعلم أمرًا آخر اختُصّ به عليٌّ ﷺ دون غيره بنقله عن رسول الله ﷺ. أما الأحاديث الخاصّة بين رسول الله ﷺ وأبي بكر ﷺ في غار ثور فصعبٌ إثباتها.

أجل، لنا أن نقول: ليس في الكتاب والسنة وآثار السلف ما يدل أنّ سيدنا رسول الله ﷺ خصّ سيدنا أبا بكر ﷺ بعلم خفي لا يعلمه غيره. وأفضل ما يمكن قوله في هذا الموضوع: إن أبا بكر ﷺ تحت وصاية من هو رسول رب العالمين والمرشد الأكبر للناس أجمعين محمد ﷺ، بهذا نتجنب التكلف ويكون قولنا أصدق وأخلص.

لرسولِنا الأكرم ﷺ وظائف كثيرة منها إعداد بيئة تُقام فيها الشعائر بحُرّية وطمأنينة، وتزويد المسلمين بمقومات مادية ومعنويّة تجعلهم حكامًا في الأرض لا محكومين؛ وهذا يقتضي أن تسري الحياة القلبية والروحية في كل شيء، فأقام النبيّ ﷺ الدينَ في حياته من فرائضه إلى آدابه، ودعا الناس إلى إقامته، وكان يبحثُ في كلِّ شيءٍ عمّا يحبه الله ويرضاه، وكان ﷺ يواظب في حياته على أدعيةٍ وأذكارٍ كثيرة ربما لا نقرأ سوى عُشرها، وليتنا جميعًا نقرأ؛ ومنها مثلًا "**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"؛ مائة مرة في كلّ غداةٍ[٤١]؛ أي ما نقوم به غيضٌ من فيضِ ما قام به ﷺ. إن الولاية والصوفية الحقيقية طريقُها القيامُ بإخلاصٍ بمَا كان النبي ﷺ يقوم به، والله نسأل أن يَسدّ عنّا ما فعلناه مسدّ ما أنيط بنا، فإننا حتى وإن قمنا بوظيفة العبودية حقّ القيام لما وفّينا شكر نعمة ربّنا وفضل رسولنا ﷺ.

(٤٠) صحيح البخاري، الجهاد، ١٧١.

(٤١) صحيح البخاري، بدء الخلق، ١١؛ صحيح مسلم، الذكر، ٢٨.

روى الطُّفَيْلُ بْنُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ؛ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ"**؛ (قَالَ أُبَيٌّ) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاتِي؟ فَقَالَ: **"مَا شِئْتَ"**، قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: **"مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"**؛ قُلْتُ: النِّصْفَ؟ قَالَ: **"مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"**؛ قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: **"مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"**؛ قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: **"إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ"**(٤٢).

وجواب رسول الله ﷺ معناه: بالِغ في أداء العبادات ما استطعتَ. أجل، علينا أن نأخذ من الدين قدر ما نستطيع حمله، فالدين يسر، أي إن التشريع يسير لا يعجز أحد عن القيام به، ولن يُشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلَبَه أي عجز عن أن يقوم به.

وليس معنى هذا أن للمكلّف أن يدع الفرائض، بل إنه لو ترك السنن المؤكدة لَعُوتِب؛ وله أن يزيد من النوافل ما يستطيع، وإن عزم على الاستمرار فيها فُتحت له معارجُ محبة الله والقربِ منه ﷻ، وهذا هو "السرّ المحمدي" الذي ينجم عنه كشف القلوب؛ ومن يسلك هذا الطريق يكن -إن شاء الله- مؤمنًا حقًّا، وتقيًّا حقًّا، وصوفيًّا حقيقيًّا، ومؤهَّلًا للولاية.

وبعد قرن أو قرنين عرضت لهذا المسلك النبويّ عقبات، فقد أصبح الناس يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيَهم، ويقرؤون أحاديث رسول الله ﷺ ولا صدى في قلوبهم لما يقرؤونه، ولا تجد لكلمات ذوي البيان الساحر أثرًا في القلوب؛ فظهر مجددون أرادوا أن يعودوا بالمسلمين إلى أصلهم، ويعيدوا ما كان عليه الأولون من عشق وحماس، ومنهم

(٤٢) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٢٣.

الإمام أبو حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وعمر بن عبد العزيز؛ كان هؤلاء الأفاضل مجدِّدين في ساحات شتى، فإنهم لما رأوا جفاف المشاعر بل موتها لدى الناس اجتهدوا ليجدوا حلًّا لهذا، فأنشؤوا المدارس والمجالس للعودة بالناس إلى السنة، ودعَوا الناس إلى هذه المؤسسات، وأخذوا يربّون كل فرد حسب مستواه وإدراكه واستيعابه، فكانوا بحق رجالًا مخلصين متفانين، لا ترى فيهم عوجًا ولا زيغًا؛ فما لبثت كلماتهم أن فعلت فعلها في الناس، حتى إن قناديل المساجد لتكاد ترقص طربًا لحديثهم؛ وبلغوا من القوة أنهم ما حلّوا أرضًا إلا غدت كأنها ساحة مغناطيسية... ومِن هؤلاء الزهّاد إبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، والجنيد البغدادي، وبِشْر الحافي، وأحمد بن حنبل... تحلّق الناس حول هؤلاء الرجال الأقوياء، فأخذوا عنهم الأوراد والأذكار التي واظب عليها سيدنا رسول الله ﷺ.

بفضل هؤلاء الفضلاء عادت القلوب تتوجّه إلى الله، وتحلّق الناس حولهم كما يتحلق المريدون، وتتابعت نشأة المدارس الصوفية، ثم ظهرت طرق صوفية كثيرة أنارت ربوع العالم يومئذ، ومنها الطريقة النقشبندية والقادرية والرفاعية والمولوية.

ومنهم مرشدون كالإمام الرباني اتخذوا من اتباع السنة الشريفة قاعدة ومرشدًا وهاديًا، وأرشدوا الناس لاتباعها، وقالوا: "لا يصل إلى بَرِّ الأمان إلا من اهتدى بالسنة السَّنيَّة، وإلا انقلبت الموازين التي حددها الشرع بقدر انقطاع علاقة الإنسان بالعالم الخارجي". أجل، الحياة في برزخ التصوف تُغيِّر الإنسان وتُحوِّل أبعاده البشرية، وهذا جعل طائفة يستخفّون بأصول الدين، وانقلب التوازن الذي أقره الشرع الحنيف، ولما انعدم التوازن عند كثيرين آثَر بعضُهم الرهبانيةَ، وبعضُهم عزفوا عن الزواج، وبعضهم اعتزلوا

الناس وانزووا في عوالمهم الداخلية، وشُغلوا بالحياة الروحية فحسب، وقال قائلهم: "حسبي قلبي"، وجاء يوم أعرض فيه هؤلاء عن المشاعر الحسيّة كافّة، وأنكروا كل ما له صلة بالجسم.

وتتلاشى الدنيا وما فيها في عين هؤلاء وهم في حالة وجد واستغراق، ويضمحل كلّ شيء سوى تجليات أسماء الله وصفاته، فهي الظاهرة اللامعة، فيشرعون يقولون: "لا موجود إلا الله"؛ والواقع أن أهل السنة والجماعة يُثبِتون وجود الأشياء ويقولون: "حقائق الأشياء ثابتة"؛ فالله موجود، والمخلوق أيضًا موجود؛ ولا بأس بهذا عند صاحب الوجد، لأن الأشياء قائمة به ﷻ، فهي موجودة لأنه موجود.

هذه عقيدة أهل السنة التي قرروها وقطعوا بثبوتها، ورغم هذا نجد الولي في حالة الصحو يطبّق ما قرره في حالتي الوجد والاستغراق، فمثلًا جاء في عدة كتب منها "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكية" للإمام محيي الدين بن عربي، و"هياكل النور" للإمام السهروردي ما معناه: "أن كل شيء خيال، ولا موجود إلا هو ﷻ"؛ لكن حذار من الخلط بين آراء هؤلاء الأجلّاء وآراء القائلين بوحدة الموجود؛ أجل، هؤلاء هم أصحاب "وحدة الوجود"، لا "وحدة الموجود"؛ فوحدة الموجود نظرية يمكن استغلالها، مبنية على أساس "الروح الكلية"؛ ابتدعها "أبيقور" وطوّرها "هيجل"، وصنعت لها المادية التاريخية صورة مغايرة.

أما وحدة الوجود فعبارة عن حال واستغراق، فلا صلة لها بالمادية ألبتة، بل هي بخلافها، فهي إنكار ونفي للموجودات لإثبات وجود الله؛ وخطأها هو حكمها على الأشياء بالشعور والمشاهدة وإهمالُ موازين السنة.

ربما تسألون: لماذا اقترفوا هذا الخطأ؟ أجل، لكم أن تقولوا: "إن محيي الدين بن عربي لطالما كتب عن مواجيده واستغراقاته، فليته

فـي الصحو واليقظة صحَّـح ما ذكره في حالة الاسـتغراق، وهذه الأفكار قد يلتبس أمرُها، فلِمَ أبقى عليها كما هي؟"

أرى أن علينـا أولًا أن نحتـاط أكثـر عنـد الحديـث عن رجـال عظام لا نستطيـع أن نقدرهم قدرهم.

أجـل، يقف المـرء أمام هـذه الآراء والأقوال المنافية لروح الشـريعة ليقـول: "أيها الإمام، ليتك حقّقتَ وصحّحـتَ هذه الأقوال"، والحقّ أنهم يرون العالم الحقيقي هو العالم الذي يعيشون فيه بسكرهم واستغراقاتهم، فـإن كانوا يَعـدّون العودة إلى عالمنا أي الانفصالَ عـن عالمهم عودةً إلى النوم فماذا يحقّقون ويصحّحون ولماذا؟

هـؤلاء العظمـاء أمثال محيي الدين بـن عربي عندمـا تأتيهم تجليات ربانية في خلوتهم ينجذبون إليها، ويرون ذلك العالم هو العالم الحقيقي، فتفكـر عقولهم وتسـطِّر أقلامهم بموازينِ ومقاييـسِ ذلك العالم الذي هو حقيقـةٌ عندهـم حلمٌ عندنا، ثـم يصوغون ما كتبـوه، ولا يحاولون التوفيق بين ما كتبوه وبين خصائص عالمنا هذا، ولو أنهم علموا أنّ هذا العالم هو العالـم الحقيقي لصحّحوا أخطاءهم التـي ارتكبوها وهم في ذلك العالـم، لكنهـم لمّا لـم يفعلوا دلّ ذلك أنهم لم ينظروا إلـى عالمنا على أنه العالم الحقيقي ألبتة.

وبعـد هـذا القـدر مـن الإيجـاز فـي هـذه المسـألة نقـول: لا يمكن أن نطلق على الصوفية أنّهم "ماديّون"، بل نقيضه صحيح، فالفروقُ شاسعة بيـن الماديين والقائلين بوحدة الوجـود؛ فالماديون لا يعترفون إلا بالمادة والكائنـات وينكـرون وجـود الله، ويقولون: "لا وجـود إلا للمادة والذرّة، وكلّ جـزء أو جُـزَيْء من الذرَّة له شـعورٌ يتحرك به"؛ أمـا القائلون بوحدة الوجـود فينفـون وجود الموجـودات ليثبتـوا وجود الله تعالـى، ويقولون:

"كل شيء قائم به، وكل ما عداه فانٍ، فلنحكم إذًا بفناء كلّ ما عداه، حتى لا يخِلّوا بطمأنينتنا ويعكروا صفونا".

ولستُ أدري كيف يُعدُّ الاثنانِ واحدًا رغمَ كلِّ هذا التضادِّ بينهما.

ومن النقاد من يقول: دُسّت في مؤلفات مولانا جلال الدين الرومي أفكار بعض الحلوليين الغربيين، ويزعم أن كثيرًا من الأفكار الحلولية التي يقال إنها خاصة بـ"أفضل الكاشي" قد دسَّها أعداءُ الإسلام في هذه المؤلفات لتشويه روح الإسلام.

ليس لنا أن نجزم بأن المؤلفات المنسوبة لمولانا جلال الدين الرومي وما فيها له ﵀؛ فقد اكتشف حتى اليوم أن بعضها منحولة عليه.

منها كتاب "فيه ما فيه" يعزوه بعضهم لأفضل الكاشي، وهذا الرجل من أنصار الأفلاطونية المحدثة، فكر طوال حياته كلها في إحياء الأفلاطونية، بل يمكن القول بأنه اتخذ من هذه الفكرة هدفًا لحياته، وهو حروفيٌّ أيضًا؛ اعتنق مذهب فضل الله الحروفي الذي يرى أن الحروف ذرات الكائنات.

لقد كذب أناس على رسول الله ﷺ، فليس غريبًا أن تُدسّ أكاذيب وافتراءات في أقوال هؤلاء العظام.

وكثير من أئمة الحديث كالإمام البخاري كانوا يعرفون هذا القول أهو من كلام سيدنا رسول الله ﷺ أم لا؛ فجهابذة نقد المتن كانوا يقفون على الأقوال التي ينقحونها ليروا هل تفوح منها رائحة النبوة أم لا، وهكذا تم نقد الأحاديث وتمييزها، لكن هذا بعيد المنال في كلام الصوفية.

زد على ما سبق أن محيي الدين بن عربي يقول: "حرام على غيرنا قراءة كتبنا".

التوسل

سؤال: ما حقيقة التوسل؟ وما المشروع منه والمحظور شرعًا؟

الجواب: التوسل لغة أن تتخذ شخصًا أو شيئًا وسيلة أو واسطة للوصول إلى الهدف المطلوب، كاستخدام السلم للوصول إلى السطح، واستقلال وسائط متنوعة للوصول إلى مكان ما، فالتوسل هو اتخاذ هذه الوسائل والوسائط لتحقيق غايتنا؛ والمقصود به هنا التوسل المعنوي.

ومن المسائل المختلف فيها قديمًا وحديثًا التوسل بالأنبياء والأولياء والعلماء على اختلاف مراتبهم وبعباد الله الصالحين؛ ثم جاءت مدرسة ابن تيمية فأعطت لهذا الجدل أبعادًا جديدة؛ ويرى بعضهم إدراج التوسُّل في مسألة الشفاعة، فيتناولهما في باب واحد.

ومن التوسل ما هو محظور وما هو مشروع، فلنشرع ببيان أولهما ثم نتبعه بالآخر:

لا واسطة في الإسلام بين العبد وربه؛ فللعبد أن يتوجه إلى ربه متى ما شاء وحيثما شاء، وأن يناجيه بلسان العبودية بلا واسطة.

قلت "متى ما شاء" لأن التقرب بالنوافل لا يتقيد بوقت؛ فللعبد أن يناجي ربه ويدعوه بالعبادات التي هي أروع أشكال الدعاء والمناجاة، فيقف بين يديه متى شاء، أما أوقات الكراهة فليست من موضوعنا، فإنما نتحدث هنا عن العبودية مطلقًا.

وقلت "حيثما شاء" لأن رسول الله ﷺ يقول: "**جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**"(٤٣).

وبالنوافل يتقرب العبد من ربه شيئًا فشيئًا، فيبلغ مقامًا قال عنه النبي ﷺ: "إن الله قال: "**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**"(٤٤).

إذًا يمكن إقامة مثل هذه الصلة بين العبد وربه ﷻ، فلِمَ الواسطة؟ فالله تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد، يقول تعالى:﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٨٦/٢)، إن الله تعالى واحد في ذاته وصفاته وأفعاله وربوبيته، فعلى العبد أن لا يشرك معه أحدًا في عبوديته.

أليس هذا هو ما نكرره في قراءتنا لسورة الفاتحة في صلواتنا كلِّها: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/٥-٦)؛ ألا يفيد هذا أننا نتوجه إلى ربنا تبارك وتعالى بلا واسطة ولا وسيلة بيننا وبينه؟

وفي سورة "الكافرون" حقائق تبين أن عبودية العبد لربه تتحقق مباشرة بلا واسطة، وأنها مرتبة في التوحيد.

ويبين النبي ﷺ في دعائه حقيقة التوحيد بقوله: "**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَضَيْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**"(٤٥).

(٤٣) صحيح البخاري، التيمم، ١؛ صحيح مسلم، المساجد، ٣.

(٤٤) صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨.

(٤٥) صحيح البخاري، الأذان، ١٥٥؛ صحيح مسلم، المساجد، ١٣٧ (إلا "وَلَا رَادَّ لِمَا قَضَيْتَ" فإنها وردت في المعجم الكبير للطبراني ١٣٣/٢٢؛ وشعب الإيمان للبيهقي ٤٩/٧).

ولن نستطرد في شرحه، وفيه أنَّ الإنسانَ لا ينفع غيره بل لا ينفع نفسه إلا بإذن الله ومشيئته؛ فالرسول ﷺ يكشف لنا سبل بلوغ العبودية الحقّة الخالصة، وذلك بالتبرؤ من أية وسيلة أو واسطة.

عن ابن عباس قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ:

"يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"(٤٦).

دلت هذه الآيات والأحاديث وأمثالها أن العبد عندما يرفع يديه إلى السماء بالدعاء ليس بحاجة إلى وساطة أحد، فإذا ما تعرَّضَ لشدٍّ معنويّ في هذا السبيل فقد واتَتْه الفرصةُ ليغترف من رحمة الله كفاحًا، وليبوح بين يدي ربِّه برغباته ويطلب منه حاجاته، ويجدد صلته به في إطار العلاقة بين العابد والمعبود؛ وبهذا المعنى لا مجال للوسيلة والتوسل.

هذا وما ذكرناه هو الوجه الظاهر من الحقيقة، لكن لها وجه باطن يأبى بعض الناس أن يعترفوا به، يستمسكون بما ذكرناه حتى هنا، ويصمّون آذانهم عما سيأتي.

أسألكم بالله هل هناك مَن ينكر أنّ القرآن نفسه وسيلة؟! فلو لم ينزل فمن أين كنا سنستشرف الأمل في الحياة الآخرة الأبدية، وننظم شؤون حياتنا الدنيوية، ونرى خريطة الجنة؟ وبأي شيء كنا سنروي قلوبنا الظمأى وكيف كنا سنتوصل إلى ذلك؟

(٤٦) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٥٩.

أسألكم بالله: هل هناك مَن ينكر أن النبي ﷺ واسطة، وهو من عرج إلى السموات العلى يوم الإسراء والمعراج وعاد وهو يقول: يا ربِّ أمتي أمتي؟! هـل تُنكَر وسـاطة نبي عظيم وصفه القـرآن الكريم بقوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ١٠٧/٢١)، وهو رحمـة للكافرين أيضًا، إذ حوّل كفرهم المطلق القطعي إلى شك وريبة، فنجّاهم من العذاب النفسي في الدنيا، ذلك العذاب الذي ينشأ عن الاعتقاد بالفناء المطلق والعدم بعد الموت، فصاروا يرون البعث بعد الموت أمرًا محتملًا.

فلو لم يُعلِّمْنَا دينَنَا فممن كنا سنتعلمه؟ لقد تعلمنا منه مكارم الأخلاق، فهـو مـن أزال الرَّين عن عين الإنسـانية، وهـو من بلّغنا الآفـاق النورانية؛ وقـد أحس الصحابة رضوان الله عليهم بهذا الشعور فـي أعماق قلوبهم، فقالوا: "اَلْمِنَّةُ لله وَلِرَسُولِهِ" فرأوا كل شيء خاصّ به مباركًا ووسيلة للنجاة، فكل شـعرة مباركة تسَّـاقط من رأسـه أو لحيته ﷺ كأنها نزلت من الجنة، فتُلـفّ بأليَـن القمـاش وتُحفظ فـي زجاجة بأعـز مكان فـي بيوتهم؛ وكل قطرة من وَضوئه تسـاقط من أعضائه ﷺ يتدافعون عليها ولا يفرطون بها، ثم يمسـحون بهـا وجوههم وعيونهـم، كأنهم يعتقـدون أن النار لن تمس عضوًا مسَّه ذلك الماء المبارك؛ هذه عقيدتهم ولم يكن الرسول ﷺ يمنعهم عن ذلك؛ فلو كان فعلهم هذا شِـركًا كما يُقال، لمنعهم ﷺ من فعل ذلك، فهو إنما جاء ليمحو الشِّرك عن ظهر البسيطة.

وأنـوّه بهـذه الواقعـة: كان القائـد العظيـم خالد بن الوليـد رضي الله عنه يحمل فـي عمامتـه شـعرةً مـن شـعر سـيدنا رسـول الله ﷺ، ففقدهـا ذات يـوم في معركة، فراح يبحث عنها لا يخشـى شـيئًا حتى اقتحم صفوف الأعداء دون أن يعبـأ بتحذير أصحابه له، فعثر عليها ولبسـها، ولما سـأله أصحابه لـم ألقـى بنفسـه فـي التهلكة، فقـال: حلق رسـول الله ﷺ رأسـه في حجة

الوداع، فأخذت من شعره شعرات، فجعلتها في مقدمة قلنسوتي فلم أَلْقَ جمعًا قط إلا انهزموا ببركة رسول الله ﷺ"[٤٧].

قائل هذا رجل له من العظمة ما يجعل أعظم قادة العالم خَدَمًا له.

وعمرو بن العاص رضي الله عنه الرجل العظيم فاتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها، الداهية السياسي المحنَّك، ذو الموهبة الإدارية الفريدة التي تشبه دهاءه، لما حضرته الوفاة وضع شعرة مباركة من لحية رسول الله ﷺ تحت لسانه لعلها تيسر عليه الحساب.

وأكرر فأقول: ومَن أجلّ من الصحابة على ظهر الأرض في فهم التوحيد؟ فلو كان هذا الفعل ونحوه شركًا لكانوا أول من يتجنبه، فهم النخبة المختارة التي شبهها الرسول ﷺ بالنجوم في السماء، وقدرها وبجّلها بقوله: "**النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَنَا أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ**"[٤٨]؛ لكن كما رأيتم لم ير هؤلاء مانعًا ألبتة من التوسل بهذه الصورة.

وأصاب الناسَ قحط في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرأى عمرُ نفسَه سببَ هذا البلاء، فأثقل هذا الأمر كاهله، واكفهر وجهه، وبينما هو عائد إلى بيته وهو على تلك الحال، توقف فجأة، وعاد مسرعًا يحث خطاه إلى بيت عم النبي ﷺ سيدنا العباس رضي الله عنه، فاستأذن، ففتح له العباس، فبادر عمر وأخذ بيده، إلى إحدى الهضاب، فدعا الله وهو يرفع يد العباس رضي الله عنه إلى السماء: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا" فَسُقُوا[٤٩].

---

(٤٧) الواقدي: فتوح الشام، ٢١٠/١.

(٤٨) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢٠٧.

(٤٩) صحيح البخاري، الاستسقاء، ٣.

وعن مالك الدَّارِ قال: أصاب الناسَ قحطٌ في زمان عمر بن الخطاب ، فجاء رجلٌ إلى قبر النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله! استسقِ الله لأمتك فإنهم قد هلكوا"، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: "ائْتِ عمرَ، فأَقْرِئْه السلامَ، وأخبِرْه أنكم مُسْقَون، وقل له: عليك الكَيْس الكَيْس!"، فأتى الرجلُ عمرَ فأخبره، فبكى عمرُ ثم قال: "يا ربّ ما آلُو إلا ما عجزتُ عنه"(٥٠).

وعن عثمان بن حنيف: أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع اللَّهَ لي أن يعافيني، فقال: "**إِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ لَكَ وَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ**" فَقَالَ: ادْعُهْ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ، وَيُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي قَدْ تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ**"(٥١).

وما زال هذا الدعاء وردًا يردده المسلمون كلما نزلت بهم مصيبة أو مرض، يصلون ركعتين ويدعون به، فيُرفع عنهم، ذلك بفضل الله وعنايته.

والخلاصة أن التوسل مشروع وواقع بشرط ألا يُنسى أبدًا أن المتوسَّل به ليس هو المقصد والغاية، وأنه ليس له من الأمر شيء سوى كونه وسيلة، وأن الأمر كله يرجع إلى مشيئة الله وإرادته، والأمثلة المتقدمة تبين أنه لا صلة للتوسل بالشرك ألبتة، إلا أنه كما يمكن إساءة توظيف أي مبدأ صافٍ قد يسيء أناسٌ العملَ به، فالتوسل من حيثُ هو لا يُضِيره ما فعل المخطئون المسيئون؛ هذا هو مفهوم التوسل عندنا؛ وعلى ذلك يشاركنا عباد الله الصالحون في دعائنا، فالدعاء جماعةً أرجى للقبول.

---

(٥٠) مصنف ابن أبي شيبة، ٣٥٦/٦؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٤٧/٧.

(٥١) سنن ابن ماجه، إقامة الصلوات، ١٨٩.

الشفاعة

سؤال: هل الشفاعة حق؟ ومن له أن يَشفع؟ وإلى أي مدًى؟

الجـواب: أجل، الشـفاعة حـق، أثبتتها الآيـات والأحاديث سـنتناولها في موضعها؛ سنتناول أولًا الشق الثاني من السؤال: من له أن يَشفـع وإلى أي مدًى؟ الإجابة هنا تعد جوابًا عن السؤال الأول كذلك.

الشـفاعة للأنبياء والأولياء والشـهداء، كل حسـب مقامـه الذي أقامه الله تعالى فيه، وأعلاها لرسـول الله ﷺ صاحب الفطنة العظمى، فقد كانت لكل نبي دعوة مسـتجابة أي شـفاعة شفـع بها في الدنيا، أما رسول الله ﷺ فادّخرها للآخرة، فهو في الآخرة صاحب الشـفاعة العظمى؛ إذ سـتجتمـع أمته "الحمّادون" تحت "لواء الحمد"، فيشفـع صاحب "المقام المحمود"، وينال كل فرد من هذه الأمة المحمدية ما يستحقه منها، فينجو ويفوز.

الدنيا فانية لا خلود فيها، وما فيها من مشكلات ومشاقّ ستكون كفارة للذنوب، لكن سيأتي على الناس يوم رهيب بئيس لا ينقذهم وينجيهم فيه العمل، فيقوم رسـول الله ﷺ صاحب الشـفاعة العظمى ليشـفـع للإنسـانية جمعاء؛ ولهذه الشـفاعة حدود بلا ريب، فالشـفاعة تأتي بحسب مشيئة الله تعالى وبإذنه فقط: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ اِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢٥٥).

وهذا مسـلَّم به؛ فالشـفعاء قد يتصرفون عاطفيًّا فيفرطون، وقد يدّعون لأنفسهم رحمة تفوق رحمة الله، وهذا ينافي الأدب الواجب مـع الله تعالى؛

فأقام الله ﷻ ميزانًا ومقياسًا يبين من يشفـع، ولمن؟ وإلى أي مدى؟؛ وكما أن أفعال الله تعالى وتصرفاته كلها عدلٌ وحكمة، فكذلك شفاعة الشافعين في الآخرة فيها عدلٌ وحكمة.

ولولا هذه الحدود لتجاوز بعضهم بالشفاعة مقتضَى الحكمة؛ ولأدّى هـذا إلى إثارة عواطف الرحمة والشـفقة عند بعض الشـافعين عندما يرى النـاس يحترقـون في جهنم، فيشـفـع في الكفـار والمنافقيـن والمجرمين جميعًـا ليدخلـوا الجنـة؛ لكن فـي مثل هذه الشـفاعة اعتـداءً على حقوق مليارات المؤمنين.

لـو تركت الشـفاعة للعواطف لاحتمل أن يسـتفيد منهـا الكافر الذي يحمل أعظم الذنوب وانتهك حقوق الخلق، إذ ارتكب جريمة كبرى بسعة الكون عندما أَنكر كلّ نظام وحكمة وجمال لله تعالى واسـتخَف وحَرّف، فالرحمة بهذه الروح السـوداء المظلمة التي تلطخت كل لحظة من حياتها بمئات الجرائم سوءُ أدب مع الله باسم المرحمة.

أخبرنا الرسول أنه ادّخر شفاعته لأصحاب الكبائر من أمّته، يقول ﷺ: "**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**"(٥٢).

فهو هنا -كما في كل شـيء- إنسـانُ تـوازنٍ، فالأمة جميعها وجدت سلوانها في هذا الحديث، وتأْمَل أن تنال شفاعته.

عندما كان "منصور الحَلّاج" يشرح هذا الحديث أخذته الجذبة فخرج عـن طوره وقال ما معناه مخاطبًا سـيد السـادات ﷺ: "يا سـلطان الأنبياء، لـم وضعـت هذه القيود، لماذا لم تطلب الشـفاعة للناس جميعًا؟ فلو أنك دعوت ربك بذلك لاسـتجاب لك"؛ فتمثل له حينئذ رسـول الله ﷺ، ولفّ

(٥٢) سنن أبي داود، السنة، ٢٠؛ سنن الترمذي، صفة القيامة، ١١.

عمامته على عنق الحلاج، وقال له: "كفِّر عن ذنبك بحياتك، أتحسب أنني قلت هذا الكلام من تلقاء نفسي؟"؛ فكان الحلاج يبتسم حتى عند مقتله وبتر أطرافه كما تبتر أطراف الشجرة؛ فهو يعلم أن هذا الحكم صدر في الملأ الأعلى، فلا مناص من التسليم والرضا.

أجل، لو أن الرسول ﷺ -كما قال الحلاج- شفع عند ربه للناس أجمعين فلربما يستجيب له ربه؛ لكن الرسول ﷺ كله أدب مع ربه، فلا يقول إلا ما يقوله ربه ولا يتعدى حدوده أبدًا.

ومن موازين الشفاعة التي وضعها الحق تعالى أن يكون المشفوع له مستحقًّا لهذه الشفاعة، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ (سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ: ٧٤/٤٨)؛ فبهذا نعلم أن للشفاعة حدودًا وليست للناس جميعًا، ولا قطع بقبول الشفاعة؛ فالأساس هنا هي المشيئة الإلهية القائمة في كل شأن وأمر، فالكافر يخرجه كفره عن دائرة الشفاعة من البداية؛ فلا يستطيع أحد أن يشفع له، ولا تقبل منه هذه الشفاعة إن قام بها.

ويعلمنا القرآن دعاء فيه وجوب التمسك بعلو الهمة ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٧٤)؛ أي هب لنا يا ربنا أزواجًا وذرية صالحة تقر بها أعيننا، هب لنا رفقاء حياة يشدّون من أزرنا ويشوقوننا في سيرنا إليك، وأولادًا وذرية تكون أعمالهم ودعواتهم الصالحة وسيلة لانهمار رحمتك علينا بعد وفاتنا، ولا تقطع بنا يا ربنا عند مرتبة المتقين، بل بلّغْنا مرتبة إمام المتقين؛ اللهم منّ علينا بخدمة الإسلام في وقت يوضع فيه نير الخدمة عن الدين، وتُعد عارًا وخزيًا عند الآخرين، وشرفنا اللهم بإمامة المتقين.

مثـل هـذا الفهم يعبر عن الهمة العاليـة، ويرجو صاحبه أن يكون أهلًا للشـفاعة بحدودها السـابقة، ولو لم يشـأ الله تعالى أن يعطينا ما نسأله لما أعطانـا أولًا صلاحية السـؤال؛ فمـا دام قد أعطانا هـذه الصلاحية وعلّمنا كيف نطلب وكيف نسأل فسيعطينا ما نسأل، نرجو هذا وننتظره من رحمته الواسعة؛ فعلينا فهم هذا الأمر جيدًا؛ أجل، فالاكتفاء بطلب ركن في الجنة دليـل علـى ضعف الهمـة، فالله يوجهنـا لتكون همتنـا عاليـة، فنطلب منه أن يجعلنا إمامًا للمتقين ليكرمنا بالشفاعة لهم.

حكى لنا رسـول الله ﷺ مشـهدًا من مشـاهد الآخرة فقال: "**يُدْعَى نُوحٌ فَيُقَالُ: هَـلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُـدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ: هَـلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ، فَيُقَالُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ**"، قَالَ: "**فَيُؤْتَى بِكُمْ تَشْـهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ**"، فَذَلِكَ قَـوْلُ اللهِ: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٤٣/٢)"[٥٣].

وفـي رواية: " **فَيُقَـالُ**: "**وَمَا عِلْمُكُمْ بِهِـمْ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا؟**" قَـالَ: **فَيَقُولُونَ**: "**جَاءَنَا رَسُولُنَا بِكِتَابٍ أَخْبَرَنَا أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ**"، قَالَ: **فَيُقَالُ**: "**صَدَقْتُمْ**"[٥٤].

أجـل، فالشـفاعة حـق وحقيقة؛ وسيشـفـع العظماء في الحـدود التي وضعها الله تعالى؛ فإن قلنا الشهادة نوع من الشفاعة، فأمة محمد بأجمعها ستشفَـع بهذا المعنى.

أما من ينكر الشـفاعة فقد خسـر الدنيا والآخرة، فالله تعالى سـيعامل عبيده بحسب معرفتهم وظنِّهم به سبحانه.

---

(٥٣) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٢.

(٥٤) البيهقي: شعب الإيمان، ٤٢٢/١.

أهل الفترة

سؤال: نسـمع عن عهد "الفترة"، فما معناه؟ وما حكمه؟ وهل نمرّ بمثله اليوم؟

الجـواب: عهـد "الفتـرة" هو فتـرة انقطاع الوحـي بين نبيَّيْـن، وغالبًا ما يُطلَق علـى مـا بعد عيسـى عليه السلام حتى مبعث رسـولنا ﷺ. أجـل، في هذه الفترة اندرست الأسس التي أتى بها المسيح عليه السلام، فلم تصل باقات النور التـي جاء بها عهده بعهد الرسـول ﷺ، فغرق الناس في ظلام دامس؛ فهي الفترة التي لم يتصل فيها النور الذي جاء به المسيح عليه السلام بالنور الذي جاء بـه رسـولنا ﷺ، فحدث بينهما فـراغ مظلم؛ وهذا الفـراغ الزمني هو "عهد الفترة"، والذين عاشوا فيه هم "أهل الفترة".

فهؤلاء لم يبلغهم الشرع الذي أتى به المسيح عليه السلام بمعناه التام وحقيقته الناصعة، ولم ينتفعوا بأنواره وأسراره، ولم تبلغهم دعوة رسولنا ﷺ، ولكن من كان منهم لم يعبد صنمًا، ولم يتخذ إلهًا من دون الله، فالإجماع منعقد علـى أنهم معفـوّ عنهم مغفور لهم ولو لم يعرفـوا الله تعالى ولم يتوصلوا للإيمان به؛ فوالد الرسول ﷺ ووالدته وجدّه ستنالهم المغفرة -إن شاء الله تعالى- لكونهم من أهل "الفترة".

عن عائشـة رضي الله عنها أخبرت "أن رسـول اللهِ ﷺ سـأل ربـه أن يحيي أبويه فأحياهمـا لـه وآمنـا بـه ثـم أماتهمـا"(٥٥). رغـم أن الحديـث ضعيف عند المحدثين؛ إلا أن المحدث الكبير الإمام السـيوطي يرى الأخذ به، ويرى

(٥٥) السهيلي: الروض الأنف، ٢/١٢١.

أن والـدي الرسـول ﷺ آمنـا بـه، فنعما بالنجـاة والمغفرة. نعـم، فقد ورد عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: "**فِي النَّارِ**"، فلما قفى دعـاه، فقـال: "**إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ**"(٥٦)؛ لكن هذا قبل إحياء الله تعالى والديه وإيمانهما له ﷺ.

والحقيقة أنه لا حاجة للاستدلال بمثل هذا الحديث ردًّا على السؤال؛ لأنـه لا دليل علـى أن أحدًا من والديه الموقَّرين عَبَـدَ الأصنام؛ فقد عاش فـي ذلك العهـد موحِّدون كثر، لم يعبدوا الأصنـام والأوثان، وكانوا على ديـن إبراهيـم ؛ وهـم من أهل الفتـرة أيضًا، وكل مـن كان حاله هكذا مـن أهـل الفترة فهو ناج؛ فإذا كان أهل الفترة ناجين فكيف يصحّ اسـتثناء والدي الرسـول ﷺ؟ والله تعالى لا يترك ولا يضيّع أيّ شيء حتى الذرات والإلكترونات التي تدخل في جسـد الإنسـان يوليها قيمة وأهمية، ويجعل منها بنيانًا خالدًا في الآخرة، فهو منزّه عن أي عبث، فهل يمكن أن نتصور أنه سبحانه سيضيع والدي الرسول ﷺ ويدخلهما النار وهما أصله وسبب وجوده؟

وأشـرنا سـابقًا أن الله لم يكن ليضيّع الموحدين في ذلك العهد أمثال زيـد بـن عمرو -عـمّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو ابن عمـه- وورقة بن نوفل؛ فهـؤلاء آمنـوا بالله تعالـى ووحدوه فـي وجدانهم؛ قد لا يعرفـون الله حقّ المعرفة، لكنهم يؤمنون بوجود إلهٍ واحد يتوجهون بدعائهم إليه.

ولقـد صـار الجـو ملائمًا ومناسـبًا قبيل البعثـة حتى إن النبـي ﷺ أثّر فـي محيط هؤلاء تأثير الضغط العالي؛ فكأن هذه الأرواح العالية شـعرت بمشـاعرها وحواسـها وبلطائفها وحدْسِـها بقرب هطـول الرحمة الإلهية؛ فراحـوا يبشـرون من حولهم بهذه البشـارة، ونظن أنّ رسـولنا الذي أوتي

(٥٦) صحيح مسلم، الإيمان، ٣٤٧؛ سنن أبي داود، السنة، ١٧.

الشـفاعة العظمى يوم القيامة لن ينسـى هؤلاء الأشـخاص الذين استقبلوه بإخـلاص ليأخـذ بأيديهم في ذلك اليـوم ويرقى بهم إلـى عالمه النوراني السـعيد، فيكون سـببًا لأمنهم وسـعادتهم؛ ومثلهم في النجاة فيما نظن من عاشـوا في نور الحنيفية السـمحة ومن لم يعبدوا الأصنام رغم ما في عهد الفترة من ظلام.

هـذا الجانب من المسـألة يتعلق بالماضي، وهنـاك جانب آخر يتعلق بيومنا الحالي، ويبدو أنه هو المقصود من السؤال.

يتعـذّر إطـلاق صفة "عهد الفترة" على زماننا وصفة "أهل الفترة" على إنسـان اليـوم حسـب ما تقوله كتب علـم الكلام؛ لكن العجلـة في القطـع بإطـلاق مثـل هـذه الأحـكام بلا رويّـة كافيـة مخالـفٌ لنظرة أهل السـنة والجماعة وعدمُ احترام للرحمة الإلهية الشاملة الواسعة.

لقـد أدركنـا عهـدًا -خاصة فـي البلـدان الأجنبية- غُيِّبت عنه شـمس الإسـلام مطلقًـا، ومُحي من القلوب اسـم الله ورسـولِه، واسـتُعمل العِلم أداة كاذبـةً لإنـكار الخالق ﷻ، وبُعث الكفر بوجهـه القبيح في دُورِ العلم والعرفـان بـدلًا مـن أن تعلو كلمـة الله والمعرفة الإلهية؛ واسـتُعمل العلم والحكمـة منصة لسـلاح يدكّ قلعة الإيمان ويجعلهـا أنقاضًا متراكمة بدلًا من أن يكونا طريقًا للوصول إلى الإيمان.

وهكـذا نسـي الشباب في ضـلال الكفـر ودُوامـة الضـلال طريقَهم إلى الجامـع والمسـجد كليًّا؛ أما الشـرذمة التي تحكمت واسـتولت على المحافل العلمية فأخذت تتغنى بالغرب وأعرضت عن تاريخها ومفاخرها؛ فبعضهم عكَّر بنظرية "التطور" أفكارَ إنسان عصرنا حول الخلق، وبعضهم لـوّث أفكار الأمة بالشـهوة الجنسـية وفقًـا لنظريات فرويـد وأرجعوا حل المشـكلات كلها من منظور الشـهوة؛ ومنهم من أفسد الشعب بالمذاهب

الفوضويـة، وكانت كل هذه المذاهب تسـتهدف إفسـاد أمتنـا أفرادًا أحيانًا وجماعـات أحيانًـا أخـرى، بل أفسـدت الأمـم القريبة منا فكريًّا وسـمّتها وأبعدتها عن أصولها وهويتها وانحطت بها.

وقامـت الجرائـد والمجلات والكتب برفـع شـعارات هذه المذاهب في طول البلاد وعرضها سـنوات عدّة؛ لذا لا يمكن عدّ إنسـان يومنا هذا خارج عهد "الفترة" تمامًا، وإلا أغمضنا عيوننا عن الحقائق من حولنا.

أريـد هنـا نقل حادثة جـرت في ذلك العهد تبين مـدى الفقر الروحي الذي مُنِي به جيلنا:

في درس ومسـامرة مع الشـباب كان أحد إخواننا يشرح حقائق الدين العلوية، وما لبث الحديث أن انتقل إلى الحوادث والأخبار اليومية، فتناول ما يحدث في العالم الشـيوعي والمظالم التي يقترفونها والخططِ الجهنمية التـي يريـدون تطبيقها في المسـتقبل، فأَخذت الحماسـة مأخذها من أحد الشـباب فجعـل يقـول: "يجب قتـل كل الشـيوعيين وتمزيقهم إرْبًـا إرْبًا"، وسـرعان ما أجابه شـاب آخر كان في ركن من الغرفة يستمـع إليهم بشوق ووجـد عميق، ويتنسـم عبير هذا الجو المبارك أول مـرة في حياته، قال له بنفس الحماس والوجد: "يا صديقي! أي قتل وذبح هذا الذي تتكلم عنه؟ فلو قمتَ بالأمس بتنفيذ ما تقوله الآن لذهبتُ أنا أيضًا ضحية بائسـة لأنني كنـت واحـدًا منهم، وها أنت ترى أنني اليوم من هـذه المجموعة المباركة الطاهرة، فبيْن الأمس واليوم قطعتُ مسافة كما بين السماء والأرض، وأقسم أن ممن تطلقون عليهم اسم العدو والجبهة المعارضة آلافًا مثلي ينتظرون الخـلاص، فهـؤلاء لا ينتظرون منكم الصفعات بـل الرحمات، فلو مددتم أيديكم إليهم لأصبحوا مثلكم؛ فما هو واجب الوقت: القتل أم الإحياء؟"؛ فأثّرت هذه الكلمات الصادقة المخلصة فيهم حتى أجهشوا بالبكاء.

أجـل، هـذا هـو الجيـل الـذي رأينـاه وسـكبنا العبَـرات الدامية على ضلالتهم، وأكثرُهم برآء، إذ ما انحرفوا إلى الضلالة إلا عندما عجزوا عن معرفة الحق، فأعتقد شـخصيًّا أن إخراجهـم عن حكم أهل الفترة يخالف مقتضى الرحمة الإلهية الواسعة الشاملة.

وإليكـم حادثـة وردت في الصحيحين: عن عمر بن الخطاب أنه قال: قدم على رسـول الله ﷺ بسـبي، فإذا امرأة من السـبي، تبتغي؛ إذا وجدت صبيًّا في السـبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسـول الله ﷺ: "**أَتَـرَوْنَ هَذِهِ الْمَـرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**" قلنـا: لا، والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: "**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**"(٥٧).

إذًا نحـن مضطـرون للتفكيـر بالتسـامح؛ ولا يذهبنّ بأحـد الوهم أننا نحـاول إظهـار رحمـة زائفة أكثر من الرحمـة الإلهية، لكننـا نريد أن ننظر إلى المسـألة في ضوء القواعد العامة عند أهل السـنة والجماعة، وبعدسـة الحديث القدسي: "**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**"(٥٨).

وللمسـألة جانـب مهم جدًّا يخصّنـا: لقد عجزنا أن نعـرض الحقائق لشـبابنا بصورة مقنعة، وأهملنا شـبابنا وشـباب العالم أجمع وهم بحاجة إلـى الرسـالة التي نحملهـا أكثر من حاجتهـم إلى الهواء والمـاء، وعندما نقـارن مـا نحن عليه بمـا كان عليه الصحابـة الكرام الذين حملوا مشـعل الهدايـة إلـى أنحاء الأرض كافـة في مدة قصيرة، وبجهـود الذين اتبعوهم بإحسـان، يظهـر بوضـوح مدى كَسـلنا وخمودنـا وجمودنـا؛ كان ديدنُهم البحثَ عن القلوب والأنفس المتعطشة للهدى والنور، وجعلوا حمل هذا النور للناس غاية حياتهم.

(٥٧) صحيح البخاري، الأدب، ١٨؛ صحيح مسلم، التوبة، ٢٢.

(٥٨) صحيح البخاري، التوحيد، ٢٢؛ صحيح مسلم، التوبة، ١٥.

وأورد هنا حادثة وقعت لأحد إخواننا:

سافر أخونا إلى ألمانيا يعبّر عن الحق والحقيقة بلسانه وحاله، فتأثر صاحب البيت المؤجِّر بوضاءة وجهه ونور ناصيته، فانضم إلى تلك الحلقة المباركة، وازدادت معرفته بالإسلام يومًا بعد يوم، وقطع شوطًا كبيرًا في حياته الدينية، وذات يوم وهو يتجاذب مع صديقنا أطراف الحديث لم يتمالك نفسه أن قال:

"الله يعلم أنني أحبك حبًّا جمًّا، فعلى يديك كانت نجاتي، لكنني شديد الغضب والنقمة عليك؛ فلو أتيتَنا قبل بضعة أشهر، لاهتدى والدي على يديك، فحياته كلها غاية في الصفاء والنقاء بميزان القيم الأخلاقية؛ وا أسفاه! هو قد رحل ولم يعرف الوجه الحقيقيّ للإسلام ليهتدي، والسبب أنك وصلت متأخرًا".

في الواقع هذه الصيحة صيحة العالم بأسره، والمخاطب هم المسلمون جميعهم، فهذا هو ما يخصّنا في هذه المسألة؛ فلنسأل أنفسنا: هل قمنا نحن المسلمين بأداء هذه المهمة الملقاة على عاتقنا؟ فإن كنا لم نؤدها فما أكثر ما سنحاسَب عليه إذًا.

الأعراف

سؤال: أين الأعراف؟ ومن أصحابها؟

الجـواب: الأعـراف لغـةً جمـع عُـرف، وهو كلّ عـالٍ مرتفـع، وعند المفسـرين سـور بيـن الجنة والنار، وسـميت سـورة الأعراف فـي القرآن الكريم بهذا الاسم لما فيها من حديث عن الأعراف وأصحابها.

وأصل الأعراف ما بين هذا المكان وذاك من منزل أو سـور، ويُسـتنبط من آيات الأعراف أنها تقـع بين الجنة والنار، أما ماهيتها فلا علمَ لأحدٍ بها.

من هم أصحاب الأعراف؟ في المسألة أقوال؛ ولم نعثر على نقل فيها سوى ما ورد في القرآن الكريم فاقتصر الأمر على العقل.

ويعرض القرآن الكريم ثلاثة مشاهد مختلفة تحدث فيها عن أصحاب الأعراف:

المشـهد الأول: ﴿وَنَـادَى أَصْحَـابُ الْجَنَّـةِ أَصْحَـابَ النَّارِ أَنْ قَـدْ وَجَدْنَا مَـا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَـا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/٤٤).

المشهد الثاني: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُـمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَـعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَنَادَى أَصْحَـابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِـيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْـتَكْبِرُونَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/٤٦-٤٨)؛ ثم بدا هذا المشـهد في آخره

وكأنَّـه يتغيـر، وإذا بأصحـاب الأعـراف ينـادون أصحـاب الجنـة قائلين: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/٤٩).

أمّا المشـهد الثالث فهو كما ذكر القرآن الكريم: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قَالُوا إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/٥٠).

دلّـت الآيـات أن بيـن أصحـاب الأعـراف وأصحاب الجنـة اتصالًا، وبينهم وبين أصحاب النار كذلك، فهم يعرفون كلا الطرفين عن كَثَب.

يـروى أنّ مِـن الصحابة مَن يرى أن الأعراف هي ذروة سَـنام الصراط، وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، ويرى آخرون أنهم الأنبياء والشهداء والعلماء وذوو الأرواح العالية الملائكية، ينظرون من بعيد ويشـاهدون ما يجري في كلا المنزلين، ويشاركون في الحوار المذكور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار؛ لكن أهل التحقيق ردّوا هذه الآراء.

وفي بعض الإسرائيليات أن أصحاب الأعراف قومٌ استوت حسناتهم وسـيئاتهم، وفي بعضها أنهم ملائكة على صورة بشـر؛ فإن أخذنا بالرواية الأخيـرة فقوله ﴿**لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُـمْ يَطْمَعُونَ**﴾ راجـع إلى أهل الجنة؛ أي إن أصحاب الجنة لم يدخلوها بعد، وهم يعلمون أنهم أهلها.

ومنهـم من يرى أن هؤلاء الذين يرون الجنة فيحدوهم الأمل، ويرون النار فيرتعدون خوفًا، هم من حُكِمَ عليهم بأن يقضوا أمدًا في معاناة وألم حتى يغدوا بحقّ أهلًا لدخول الجنّة.

أجـل، أحيانًـا يكون تجرعُ المعانـاة والآلام في الدنيـا تكفيرًا لذنوب قـوم، وأحيانًـا يكون عذاب القبر تكفيرًا وتطهيـرًا لآخرين، ومن لم يتطهر

بهـذا ولا ذاك جـرى له تطهيرٌ مثله في الآخرة؛ ومن هؤلاء قوم سـيقضون مـدة علـى الأعراف ما بين رغبة في الجنة ورهبة من النار، وفي هذا الطرز مـن الحيـاة كفارة وتطهير لهـم من الذنوب، ثم يدخلـون الجنة بفضل الله ورحمته.

والله تعالـى يعلـم حقيقـة كل شـيء وماهيتـه، فـلا أحد يعلـم حقيقة الأعراف وأصحابها إلا هو سبحانه.

تـربيـة جهنـم

سؤال: هل لجهنم دور في إصلاح وتهذيب أهلها؟

الجــواب: جهنم دار جـزاء؛ يُجازَى فيها المرء علـى الأعمال الطالحة، فينال جزاءه على ما اقترف من ذنوب وآثام في الدنيا.

فـإن لـم يصبـر المؤمـن فـي الدنيا علـى ما كلفه بـه ربّـه، وعجز عن كسـب الهوية والقابلية لدخول الجنـة تحقق له ذلك بصورة ما في جهنم؛ أما مَنْ ضيّـع قابليته واستعداده كلية بسبب كفره في الدنيا فسيفقد الخاصية التـي تؤهلـه لدخول الجنة؛ لأنه لا يمتلك أصـلًا ولو ذرة واحدة من تلك الخاصيـة؛ فتخمُّر شـيء متوقف على قابليته للتخمُّـر، وإن انعدمت انعدم التخمر.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**"(٥٩)؛ لأنَّ فيه جوهرة ثمينة قيمة تؤهله لدخول الجنة.

إذًا مـن عجز عن أن يُتمّ سـيره ورُقيَّه فأمامه سـير آخـر يبدأ من القبر، تغشاه فيه سلسلة من صنوف العذاب والآلام.

فمـن الناس مَـن ينقضي أمرهم في القبر، فمثلًا يقول بعض السـلف لمـن رآه فـي المنام: عُذّبنا سـتة أشـهر وانقضى الأمر. فـإن صدقت تلك الرؤى فالمقصود حساب المقربين.

(٥٩) صحيح البخاري، التوحيد، ١٩؛ سنن الترمذي، البر، ٦١ (واللفظ للترمذي).

ومـن النـاس من ينجيـه عذاب القبـر من وطـأة الحسـاب والميزان؛ ويمضـي آخَـرون فيمـا هـم فيـه حتـى المحشـر، فيحاسـبون فيـه أو لا؛ ثم يدخل بعضهم جهنم -نسـأل الله السـلامة- فيتدارك مـا فاته في الدنيا، يفعل الله بهم ذلك ثم يخرجهم، فيدخلون الجنة، ويقال لهم "**الجهنَّميون**"(٦٠)؛ وبذلـك يكونـون قد حصلوا على ما كان يلزمهم الحصول عليه في الدنيا، فعـادوا إلـى فطرتهم الأصلية، فتطهروا من جديد وعـادوا كما خُلقوا أول مرة؛ فأخرجهم الله من جهنم وأَدْخَلَهم الجنة.

(٦٠) صحيح البخاري، الرِّقاق، ٥١.

"لا إكراه في الديـن"

سؤال: ما معنى هذه الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢٥٦)؟

الجـواب: جوهر الديـن وروحه يـردّان الإكراه؛ فالإكـراه يناقض روح الديـن، والإرادة والاختيـار فـي الإسـلام أسـاسٌ تقـوم عليـه معاملاتـه؛ فـلا اعتبـار أو قبـول لأي عمـل أو فعـلٍ جرى بالإكـراه سـواء كان ذلك فـي العقائـد أم العبـادات أم المعامـلات؛ فمثل هـذا يخالف قاعـدة "**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**"[٦١] ويناقض مقتضاها.

وكمـا لا يجوّز الإسـلام الإكـراه في معاملاتـه، لا يجـوّز أيضًا إكراه الآخريـن علـى الدخول في الإسـلام؛ فلكل فرد مطلـق الحرية، فالذميون مثلًا إذا دفعوا الجزية والخراج ضمن لهم الإسـلام سـلامة حياتهم؛ فأفق المسامحة في الإسلام واسعٌ ورحبٌ إلى هذا الحدّ.

والديـن ليس نظامًـا يمكن فرضه بالقوة والإكراه؛ فأهمُّ شـيء فيه هو الإيمان، والإيمان أمر قلبي وجداني صرف، وليس هناك قوة لها تأثير على القلب والوجدان؛ فلا يمكن أن يُقبِل الإنسـان على الإيمان إلا بميلٍ قلبيّ ودافعٍ وجدانيّ، إذًا لا وجود للإكراه في الدين بهذا المعنى.

لـم يسـعَ الدين منذ عهد أبينـا آدم عليه السلام حتى اليوم لإكـراه أحدٍ على الدخـول فيـه؛ فالإكراه هو ديـدن جبهة الكفر التي حاولـت إخراج الناس

---

(٦١) صحيح البخاري، بدء الوحي، ١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٥.

مـن دينهـم بالقوة والإكراه، ولكن لم يقم أي مسـلم بإكـراه أيِّ كافر على الدخول في الإسلام؛ نعم، قد يُقال: في القرآن الكريم آيات كثيرة تحضّ على الجهاد، أليس هذا نوعًا من الإكراه؟

كلا، ليـس فـي هـذا أي إكراه؛ فالجهـاد ما شُـرع إلا لمجابهة الإكراه الواقــع مـن الجبهـة المعاديـة، إذًا لا أحـد يدخل في الإسـلام إلا بكامل حريَّتِهِ وإرادته؛ والجهاد الذي فرضَهُ الإسلامُ إنَّما شُرِع لحماية هذه الحرية وتيسير سبلها، وما تحققت هذه الحرية إلا بالجهاد.

ولتقويـم هـذه المسـألة مِنْ منظـور آخر نقـول: حكمُ بعـضِ الآيات مقصـورٌ علـى مراحل معينـة، وقد تأتي هذه المراحل بيـن عهود النهوض والكمـال وبين عهود الانحطـاط والتخلف، ولكن يبقـى الحكم مقصورًا علـى تلك المرحلـة؛ مثال ذلك سـورة "الكافرون": ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَـا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُـدُ مَـا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُـمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ فحكم هذه الآيات مقصور على مرحلة وفترة معينة.

وهـذه المرحلـة هي مرحلة بيان المسـائل وابتكار الحلول، فسـيكون تقديم هذه المسائل بالنصح والإرشاد دون إكراه المخاطبين على قبولها؛ وهـذه المرحلـة تقتضي عدم الاشـتغال بضلالات الآخريـن وانحرافاتهم وتجنـب إثارتهـم، مـع الثبات علـى الاسـتقامة وتطبيق الدين فـي الحياة الشـخصيّة، فأحكام أمثال تلك المرحلـة لا تعمّ بمعناها الفتراتِ جميعَها، لكن من الخطأ القول بأن هذه الأحكام لا سبيل إلى تطبيقها لاحقًا في أي عهد من عهود الإسـلام، بل وُجدت مثل هذه المرحلة في العهود السـابقة كلها، ونحن اليوم نمرّ بها أيضًا.

وفي الآية حكم آخر عامّ في كلّ زمان وعهد، سارٍ على الدوام، وهو حكم الأقليات الدينية في الديار الإسلامية، فليس لأحد إكراههم على الدخول في الإسلام، بل يجب أن يكونوا أحرارًا في عقائدهم الدينية.

عندما نتأمل التاريخ يبدو جليًّا أنه عاش معنا وبيننا على الدوام زمرة من المسيحيين واليهود؛ واعترف الغرب أن اليهود والنصارى لم يكونوا في أمن وسلام وإنْ كانوا في بلادهم مثلَما عاشوا بيننا؛ رضوا بدفع الجزية، ودخلوا في ذمتنا، فوجبت حمايتهم، لكن لم يقم أحد بإكراههم على الدخول في الإسلام، وكانت لهم مدارسهم الخاصة حتى وقتٍ قريب، بل إنهم يمارسون شعائرهم الخاصَّة ويحافظون على طقوسهم وأعيادهم الدينية، ومن يدخل منّا إلى أحيائهم في بلد إسلامي وإن كان في أزهر عهودنا يحسب نفسه في أوروبا؛ أي بلغت حرياتهم من السعة كلّ هذا المبلغ، ولا قيد سوى منعهم من المكر بنا أو استجرار شبابنا ونسائنا إلى الانحراف؛ وكان هذا شرطًا وضرورة للمحافظة على سلامة مجتمعنا.

وإن وجود مثل هذه الأحكام للحيلولة دون الانحراف في الدين لا يعني وجود الإكراه فيه، فهي خاصة بمن دخلوا في الإسلام باختيارهم وإرادتهم، واعتنقوه ورضوا بهذه الأحكام؛ لذا إن ارتدّ أحدهم عن الإسلام مثلًا يُستتاب مدة للعودة إلى الإسلام، وإلا قُتل؛ وهذا عقاب على نقض عهد سبق عقده، وتقتضيه المحافظة على نظام المجتمع؛ فالدولة تدار بنظام معين، ولو اتخذت أهواء كل فرد أساسًا لخلت إدارة الدولة من النظام؛ لذا أهدر الإسلام حرمة المرتد وحياته حفاظًا على حقوق المسلمين جميعًا.

فمن يدخل في الإسلام يُكلَّف بفعل أمورٍ وتركِ أخرى، ولا علاقة لهذا بالإكراه؛ فمثلًا: لو ضحك المكلف في الصلاة قهقهة لانتقض وضوؤه

وفسدت صلاته عقوبةً له عند الأحناف، ولو لبس المُحرِمُ ملابس مخيطة أو قتل حشرة كانت على بدنه لزمته كفارة عقوبةً له؛ لكن لو ضحك خارج الصلاة، أو قتل حيوانًا في غير الإحرام فلا بأس ولا جزاء، وهكذا ما نحن فيه؛ فالإسلام وإن لم يُكره أحدًا على الدخول في الإسلام إلا أنه لم يطلق العنان لمن أسلم مختارًا ولم يكن ليترك له الحبل على غاربه، ففي الإسلام أوامر ونواهٍ، يجب على أتباعه الانقيادُ لها؛ فهو يأمرهم بالصلاة والصيام والزكاة والحج، وينهاهم عن الخمر والقمار والزنا والسرقة، ويعاقب مرتكب هذه المنهيات بعقوبات متنوعة تبعًا لنوع المحظور، وهذا لا يدخل في الإكراه ولا صلة له به.

ولو تدبّرنا قليلًا لعلمنا أن مثل هذه التدابير الرادعة تستهدف مصلحة الناس؛ فبهذه التدابير يحافظ الفرد والمجتمع على سعادته في دنياه وأخراه؛ فإن شئت فقل: هناك إكراه في الدين بهذا المعنى؛ فالرسول ﷺ يشير إلى هذا بقوله: "**عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ**"[٦٢].

(٦٢) صحيح البخاري، الجهاد، ١٤٤.

نظرية داروين

سؤال: ما السبب الكامن وراء إصرار بعض المحافل العلمية على نظرية داروين رغم ظهور بطلانها وانكشاف عَوَارها؟

الجواب: يستحيل العثور على نظرية بُعثت بعد موتها مرات سوى نظرية داروين، ماتت ثم بُعثت، ثم ماتت ثم بعثت... والآن دخلت في الغيبوبة ويحاول أناس إسعافها! وبينما يستميت بعض رجال العلم في الدفاع عن أفكار داروين انبرى آخرون منهم بسهام نقد قاتلة لنظرية داروين فمزَّقوها كلَّ مُمزَّق وقالوا: الإيمان بهذه النظرية بعدما ظهر فسادها خداعٌ ليس إلا، هذا هو المشهد القائم في المحافل العلمية العالمية، ولكن يبدو أن النظرية ستبقى مدة تشغل الأوساط العلمية، وبين الأمس واليوم كُتبت فيها آلاف الكتب في الشرق والغرب، وما يزالون يكتبون وسيكتبون.

وليُعلم أن الثقافة شرقًا وغربًا أقيمت اليومَ على أسس مادية وعلى مبادئ الفلسفة المادية، فالمادية في أمريكا وروسيا سواء، وقد خيّمت على جُلّ الثقافة الغربية اليوم أجواء الثقافة الأمريكية، ومرادنا بـ"الشرق" الخريطةُ الجغرافية لا الفكرية، فكلمتا "الشرق والغرب" تجاوزتا اليوم الحدود الجغرافية، فنحن نرى روسيا جزءًا من الغرب.

ورؤية الفريقين للدين والعلم واحدة، فالغرب ينظر إلى الدين بنظرة "روسو (*Russo*)" و"رينان (*Renan*)"، وهي أن الدين وحدة صغيرة ضرورية للحياة الاجتماعية، أي إن الدين لم يكن عندهم غايةً وهدفًا بتاتًا، بل هو واحد من عدة وسائل أخرى لسعادة بعض الناس، فينبغي أن يفسح له الطريق، وهذا ما وصلت إليه روسيا اليوم؛ وهذه النظرة يمكن عدّها بدايةَ اللينَ والمرونة لكنها ليست المفهوم الصحيح للدين كما نفهم.

ونظـرةُ هـؤلاء إلى العلم بشـعبه وفروعـه كلها واحدةٌ، هـذا ما عليه العالـم اليوم؛ ورغم كل هذا ثمَّة كثيرون حتى من العلماء المادّيين نقدوا نظريـة دارويـن وفندوها وطعنوها عضوًا عضوًا، فلم يَسـلم منها شـيء؛ وهـذا الأمـر نراه جليًّا علنًا فـي أوروبّا وأمريكا، أمّا في روسـيا فما يزال يجري بصمتٍ وخفاء.

أجل، لا تزال روسيا تصرّ هي وحلفاؤها على هذه النظرة؛ لأنها أرست قواعدها الفاسدة على المادية التاريخية، لذا كان من المهم جدًّا عندها أن تكون نظرية داروين صحيحة؛ والحقيقة أنه ما إن تتهاوى الفلسـفة المادية والماديـة التاريخيـة حتى تتصـدر الميتافيزيقية المشـهد، وعندئذ سـيُعنَى النـاس بتقييم القيم الروحية والمعنوية أكثر من القيم الاقتصادية والمادية، ومعنـى هذا أُفول نظامهـم الفكري؛ لذا يقومون بدفـع نظرية داروين إلى المسرح من حين إلى آخر، وسيستمر هذا إلى أمد.

أما في تركيا فما يرفـع لواء هذه النظرية ويسعى لخدمة هذا الفكر سوى نفر من هيئة التدريس بالجامعة وفئة من المعلمين؛ يقدِّمون هذه النظرية في مادة "علم الأحياء" وكأنها هي الحقيقة عينها، فيفسدون العقول الغضَّة.

ولن أعمد هنا إلى تحليل المسـألة تحليلًا علميًّا مفصلًا، فقد تناولتُها بالتفصيـل في إحـدى المحاضرات(٦٣)، ثم تناولها بعـض الإخوة عقائديًّا، وتبلـورت جهودهم في كتب ومجلدات مفيدة، فأحيل إليها للاسـتفصال، لأقتصر على جواب السؤال.

يقـول أنصار هـذه النظرية: تكونت الأحماض الأمينية أولًا في المياه، ثــم غـدت المُتَمَوِّرة "الأميبا" أو وحيد الخلية كائنات حيّة، طالَتْها عمليات

(٦٣) ألقى المؤلف محاضرته "حقيقة نظرية التطور" في السبعينات، ثم أُدرجت أبحاثها في كتاب تُرجم بعد ذلك إلى اللغة العربية بعنوان "حقيقة الخلق ونظرية التطور" صدر من دار النيل.

التطـور، حتـى صارت في مرحلة متطورة أحياءً إما قرودًا أو كلابًا كما قال بـكلٍّ قائـلٌ، ثم ظهر الإنسـان في آخر مرحلة من التطـور؛ وعرَضوا بعض الحفريـات عثروا عليها في بعض الأماكن دليلًا على صحة هذه الفرضية، بل عدُّوها منشـأً وأصلًا وسـلفًا لأجناس وأنواع كثيـرة من الأحياء؛ فمثلًا جعلـوا بعضها أصلًا للحصان، وبعضها لقناديل البحر وأخرى للطحالب، وقالـوا: الصـورة الحاليـة لهـذه الأحيـاء إنمـا تشـكلت بعد مـرور آلاف السنوات عليها.

ولكن اكتشـافات العلماء الأخيرة تدحض هذا الزعم، فثمة حشـرات وصفها أنصار النظرية بالمخلوقات العنيدة حافظت وما زالت على أحوالها وأشكالها القديمة منذ ظهورها قبل ٣٥٠ مليون سنة حتى الآن.

وكـذا المفصليـات والزواحف وعقـارب البحر لا تـزال تحافظ على أشكالها وأحوالها التي كانت عليها قبل ٥٠٠ مليون سنة، أي أشكالُها هي عين أشكال متحجراتها بلا أدنى فرق، هذا ما قاله علماء الحيوان أنفسهم؛ فـإذا كانـت الأحياء الدنيا لم يعترها أي تغيـر أو تطور، فكذا قَدَم الحصان خلافًا لما يدعيه الداروينيون، وكذا الإنسان فهو ما يزال على شكله الأول منـذ أن خُلـق؛ وبينما يدعي التطوريـون أن الأحياء اعتراهـا جميعًا التغيّر والتطور، تظهر أمامنا أحياء تعيش منذ ٥٠٠ مليون سنة، لتكذّب ادعاءهم، وتقول: "كلا... نحن ما تغيَّرنا ولا تبدّلنا ولا تطوّرنا".

ويزعمـون أن تطـور الأحياء وتبدلهـا محض صدفة، ويتـم ببطء عبر الزمن، وتطوُّرُ وتبدُّل كلِّ كائن مرتبطٌ بالظروف والشروط التي يوجد فيها، فثمة عوامل لها تأثير إيجابي أو سلبي على الطفرات الإحيائية، مثل علاقة الأرض بالشـمس وبُعدهـا أو قربهـا منها، وكيفيـة دوران الأرض حولها، والتغيـرات الناتجـة عن هذا الـدوران كاختلاف الفصـول؛ فالتغيرات إنما

تتحقق تبعًا لهذه الشـروط؛ مثال ذلك أن الحصان قبل ملايين السـنين كان حيوانًا صغيرًا له خمسـة أظافر في القَدم، فلما أتت عليه هذه السـنون كبر وبقي بظفرٍ واحدٍ.

والحقُّ أنَّه ليس لهم على دعواهم برهانٌ يُعتَدّ به، يتكلمون عن مخلوق عاش قديمًا ادعوا أنه كان حصانًا، ولا صلةَ له بالحصان الذي نعرفه؛ لقد خلق الله تعالى حيوانًا في ذلك العهد، ثم انقطع نسله بعد حين، ولا شيء يشـبهه الآن، فكيـف يُدَّعى أن ذلـك الحيوان هو الحصـان؟ لقد خلقه الله تعالـى في عصرٍ ما، ثـم خلق الحصان بعده بعصور، فما وجه الجمع بين هذين الحيوانين ونسبة أحدهما إلى الآخر؟

عُثر على نحل وعسل لما قبل ملايين السنين، وتبيّن أنَّ النحل منذ مئة مليون سنة كانت تجرس العسلَ في أشكال هندسية كما تفعل اليوم، فرغم مرور مائة مليون عام لم يتغير شـيء، فالنحلة ما تزال تجرس العسـل كما كانت تفعل وفي نفس الأشـكال الهندسـية، أي لم تتغير طوال هذا الزمن فطرة النحل وطريقة جرسه العسلَ، ولا أي شيء في بنية النحل وأعضائه، فلـو كان هناك أيّ تطوّر فأين حدث وكيف؟! على أنصار نظرية التطور أن يبينوا لنا هذا.

قبـل بضـع سـنوات أعلن أحـد أنصـار الداروينية الحديثـة للعالم أنه اكتشـف جمجمة فيها صفات بشـرية وأخرى قردية، وقدَّم هذه الجمجمة دليـلًا علـى تطـور القرد إلى إنسـان، وما طـال الأمر حتى كُشـف القناع، وتبين أنّ الفك الأسـفل رُكّب من جمجمة قرد وجمجمة إنسـان حقيقي، أي رُكِّبت جمجمة واحدة من جمجمتين، ثم وضعت هذه الجمجمة أمدًا معلومًا في الحمض لتوهم أنها جمجمة قديمة، ثم زُرعت أسنان إنسان في الفك الأسـفل وبُرِدت، ثم قُدِّمت هذه الجمجمة دليلًا على وجود الحلقة

الوسطى بين القرد والإنسان، وكادت عملية التزوير هذه تخدع الأوساط العلمية(٦٤)؛ ولكن بعض العلماء تنبهوا لها واكتشفوا زيفها وكذبها، ونشروا ذلك في الصحف والمجلات، وبحثت الصحف الموضوع، ونشرت فيه مقالات كثيرة.

أما نظرية الطفرة الإحيائية فتقضي بأن تعتري التغيراتُ نسلَ الأحياء إن تعرضت الأحياء لطفرات إحيائية، وهذه التغيرات أساس ظهور أنواع الأحياء كلها.

وأثبت تقدُّمُ علمَيِ الجينات والكيمياء الحيوية أن الطفرات الناتجة عن المصادفات العشوائية يستحيل أن تؤدي إلى تحسن الأحياء وتطورها وبلوغها الكمال، فالطريق مسدود إذًا أمام هذا الادعاء.

ومنذ سنوات تُجرَى محاولات وتجارب كثيرة لتهجين الحمام والكلاب، لكن بلا جدوى؛ صحيح أنه حدثت بعض التغيّرات الجسدية كتغير شكل الأنف أو الفم، لكن بقيت الكلاب كلابًا وما استحالت حميرًا مثلًا، وبقي الحمام حمامًا وما استحال طائرًا آخر؛ وسبق أن أُجريت تجارب كثيرة على ذباب الفاكهة "دروسافيلا" ولكن بقي هذا الذباب ذبابًا، وعاد أرباب هذه التجارب بِخُفَّيْ حُنَيْن؛ فتركوها خائبين وركبهم اليأس.

وقد أثمرت هذه التجارب؛ إذ أدرك العلماء حقًّا أنه يستحيل الانتقال من نوع إلى آخر في عالم الأحياء، لوجود هوّات واسعة بين الأنواع يستحيل تجاوزها؛ وبات معلومًا لهم جميعًا أن الحلقات الوسطى تظلّ عقيمة؛ فالبغل مثلًا يستحيل تكاثره واستمرار نسله؛ فكيف بالإنسان

(٦٤) هذه الجمجمة المزيفة التي أطلقوا عليها اسم (إنسان بيلتداون) خدعت العلماء أربعين عامًا تقريبًا، وكُتب حولها نحو نصف مليون مقالة في مختلف المجلات العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الأوروبية حتى اكتشف زيفها عام ١٩٥٢م في بريطانيا. (المترجم)

إذًا وهو كائنٌ متميز كُتب لنسله الاستمرار إلى يوم القيامة، فكيف يتيسر ظهور كائن مثله من خلال الطفرات الإحيائية ولا يتيسر هذا لما دونه من المخلوقات؟ ووقوع هذا الأمر ليس له برهان حقيقي، فهو ليس مستحيلًا عقلًا فحسب بل يستحيل تخيله.

وعُثر قرب جزيرة مدغشقر على أحفورةِ سمَكة، ولما أجروا البحوث عليها تبين أنها تعود إلى ستين مليون سنة سَلَفَتْ، فلم يتريثوا بل قرروا أنها من الأسماك المنقرضة، وسرعان ما جاءهم صياد من الجزيرة نفسها بسمكة من هذا الصنف الذي زعموا أنه انقرض، وعاد أنصار التطور مرّة أخرى بخفي حنين لما أيقنوا أن هذه السمكة تشبه مائة بالمائة دون أي تبدل أو تغير تلك السمكةَ التي عاشت قبل ستين مليون سنة؛ وهكذا أفسدت السمكة الحية سيناريو السمكة المتحجرة الذي أعدَّه التطوريون، فسقطوا في البئر الذي حفروه بأيديهم.

ورغم هذا كلّه نرى الماديين يناصرون النظرية التطورية مناصرة عمياء ولا يتخلَّون عنها أبدًا وإن تناقضت مع العلم، لأنّ التطور أحد القواعد الرئيسة للمادية التاريخية وسندُها وركنٌ من أركانها، ولأن ماركس وإنجلز تَبنَّيا هذه النظرية.

يرى هؤلاء أن حل أي قضية أو تفسيرها لا يكون إلا بالنظرة الماديّة، ويَأبَون أن يقولوا: "لم نستطع تفسير هذه المسألة، إذًا فلا بد من وجود قوة معنوية"، وإنما يبذلون من الجهود ما يبذلون من أجل التنصّل من اعتراف كهذا، وهذه الجهود والمحاولات اليائسة أبعدتهم كثيرًا عن العقل والمنطق والاعتدال في السلوك والبحث، بل أرغمتهم على كثير من التزوير والخداع وألاعيب المنطق التي لا تليق بالعاميّ فكيف برجل العلم؛ وهذا ما جعلهم في كل مرة تَحمَرُّ وجوهُهم خجلًا.

ولكن وا أسفاه كم عقل غضّ تأثر بهم فزاغ وانحرف، لكن حبل الكذب قصير، وحبل هؤلاء أقصر، وكما يقال: قد يلقي أحد المجانين شيئًا في بئر، فيشغل أربعين عاقلًا يحاولون استخراجه فلا يستطيعون، وهذا ما حدث في هذه المسألة.

لقد أفاد داروين دنيا العلم من حيث لا يدري، فتصنيف الأنواع وترتيبها نتاجُ بحوثه، وكان هذا التصنيف أحد الأدلة على مدى النظام والانسجام المذهل في الكون؛ فتبارك الله الذي خلق هذا الكون في نظام بديع محفوظًا من العبث.

سبحانك ربنا تهدي من تشاء، فنحن قد زادتنا بحوث داروين إيمانًا، أما هو فأضلَّته.

مصادر

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **مصنف ابن أبي شيبة**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد؛ المكتبة العصرية، صيدا-بيروت؛ ١-٤.

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م؛ [المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون]، ١-٤٥.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **الجامع الصحيح**؛ تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر؛ دار طوق النجاة، ١-٩، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **دلائل النبوة**؛ تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي؛ دار الكتب العملية-دار الريان للتراث، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

______، **شعب الإيمان**؛ تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-١٤، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م.

جيمس هنري برستد "*James Henry Breasted*"، **تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي** [ترجمة كتاب "*A history of Egypt, from the earliest times to the Persian conquest*"]؛ ترجمة: د. حسن كمال؛ مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٦ه/١٩٩٦م.

الدواني ، أبو عبد الله جلال الدين محمد بن أسعد بن محمد (ت: ٩٠٨ه/١٥٠٢م)؛ **الزوراء**؛ مخطوط (كتبت سنة ١٣٠٩ه)؛ مكتبة جامعة ملك سعود، رقم: ٣٤٥٣.

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله (ت: ٢٠٧هـ)؛ **فتوح الشام**؛ دار الكتب العلمية، ١-٢، الطبعة الأولى، ١٤١٧ه/١٩٩٧م.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (ت: ٢٠٤هـ)؛ **مسند أبي داود الطيالسي**؛ تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي؛ دار هجر ، مصر، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم**؛ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.

مصطفى محمود، (ت: ٢٠٠٩م)؛ **حوار مع صديقي الملحد**؛ دار المعارف، ١٩٨٦م.

مولانا جلال الدين الرومي، محمد بن محمد بن حسين (ت: ٦٧٢ه/١٢٧٣م)؛ **مثنوي**؛ ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا؛ ١-٤، ١٤١٦ه/١٩٩٦م.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت: ٣٠٣هـ)؛ **السنن الكبرى**؛ تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١-١٠، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (ت: ٩٠٢هـ)؛ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**؛ تحقيق: محمد عثمان الخشت؛ دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م.

سعيد النُّورْسي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **المثنوي العربي النوري**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت: ٥٨١هـ)؛ **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**؛ تحقيق: عمر عبد السلام السلامي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت: ١١٦٢هـ)؛ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**؛ المكتبة القدسي، ١-٢، ١٣٥١هـ.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.